

صندوق الدنيا

صندوق الدنيا

تأليف
إبراهيم عبد القادر المازني

المحتويات

٧	مقدمة
١٣	شذوذ الأدياء
١٧	الصغار والكبار
٢٣	الحقائق البارزة في حياتي
٣١	اللغة العربية بلا معلّم
٣٥	أشقُّ المحادثات
٣٩	من ذكريات الصبا: بين رجال الليل
٤٧	أبو الهول وتمثال مختار
٥٥	الحب الأول
٦٣	حلاق القرية
٦٧	سحرٌ مجرّب
٧٥	الفروسية
٧٩	الطفولة الغريبة
٨٥	مقتطفات من مذكرات حواء
٩٧	عاطفة الأبوة
١٠٧	كيف كنتُ عفريتًا من الجن
١١١	رجل ساذج
١١٥	ابن البلد
١٢١	صورة وصفية لصحفي
١٢٧	حلم بالآخرة

مقدمة

كنا نفرح «بصندوق الدنيا» ونحن أطفال ... نكون في لعبنا وصخبنا فيلمح أحدنا «الصندوق» مقبلاً من بعيد فيُلقي ما بيده من «كرة» أو نحوها ويُطلقها صيحةً مجلجلةً ويذهب يعدو متوثباً ونحن في أثره، ونتعلق بثياب الرجل أو مرقعته على الأصح، فما هي بثياب إلا على المجاز، فهذا ممسك بكمه، وذاك بحزامه وآخر يده على الصندوق، وهو سائر وظهره منحني تحت حمله، ولحيته الكثة الغبراء مثنية على صدره، ونحن نتلاغط حوله وتتوثب، حتى يصير بنا إلى الظل، فيضع «الدكة» الخشبية على الأرض فنكون فوقها نتزاحم وندافع ونتصايح ونتشائم قبل أن تستقر على أرجلها، والرجل ساكن الطائر لا يعبأ بنا ولا يولينا نظرة ولا يحفل من بقي منا على «دكته» ومن زُحزح عنها فوقع على الأرض فقام يلعن ويسب أو يبكي ويتوجع، أو يمضي إلى الحائط فيلصق به كتفه ويعمل يده في عينه.

ويخلع الرجل الحوامل عن كتفه ويقيمها أمامه ويرفع «الصندوق» ويحطه عليها، فنزحف نحن «بالدكة» إليه ونُدني وجوهنا من العيون الزجاجية الكبيرة، وننظر ونتنظر. فإن صاحبنا لا يعجل، ويطول بنا النظر إلى لا شيء. والانتظار على غير جدوى، فنترد برءوسنا عن عيون الصندوق، ونرفع إليه وجوهنا الصغيرة، فيبتسم ويبسط كفاً كالرغيف ويقول «هاتوا أولاً» فتندفع الأيدي إلى الجيوب تبحث عن الملايم وأنصافها فتفوز بها أو تخطئها، فتبييضُ وجوهٌ وتسودُ وجوهٌ وتلمع عيون وتنفطئ عيون، وتفتت شفاه وتمط أخرى أو تتدلى، ويُقبل «المُعدم» على «الموسر» يستسلفه مليماً، ويحدث في عالم الصغار ما يحدث في عالم الكبار، من جود وبخل، ومن مسارعة إلى النجدة أو اغتنامها فرصة للانتقام، ومن مساومة ومشاركة ومطل، ومن تعبير بجحود يد سلفت، ومحاسبة على دين قديم، ويرجع المحرومون كاسفين آسفين، أو ناقمين ثائرين، أو راضين غير عابئين،

ويقعد السعداء ويُقبلون على «الصندوق» وقد نسوا إخوانهم، فكأنهم ما خلقوا ولا كانوا منذ دقائق قليلة أنداًا يتلاعبون ويفرح بعضهم ببعض ويجد في قربه الروح والغبطة والأنس، ويطلُّ الرجل من عين في جانب «الصندوق» ويدير «اليد» فتبدو لعيوننا المشرَّبة صور «السفيرة عزيزة» ربة الحسن والجمال، و«عنترة بن شداد» الذي كان:

يهزم الجيش أوحدياً ويلوي بالصناديد أيما إلقاء

و«الزير سالم» و«يوسف الحسن».

ويكفُّ اللسانُ عن الوصف والتحدث، واليد عن الإدارة والعرض، فقد انتهى «الدور» واستوفينا حقنا، فإما «دور» آخر بملايم جديدة، وإلا فالقناعة كنز لا يفنى. وقد شببت عن الطوق جدًّا، وخلفت ورائي طفولتي التي لا تعود.

وصرت غيري فليس يعرفني	إذا رأيَ الشابُّ ذو الطرر
ولو بدا لي لبِتُّ أنكره	كأنني لم أكنه في عمري
كأننا اثنان ليس يجمعنا	في العيش، إلا تشبُّت الذكر
مات الفتى المازني ثم أتى	من مازن غيره على الأثر ^١

ولكني ما زلت أمتُّ إلى طفولتي بسبب قوي، وما انفكت أخراي معقودة بأولها. كنت أجلس إلى الصندوق وأنظر ما فيه، فصرت أحمله على ظهري وأجوب به الدنيا، أجمع مناظرها وصور العيش فيها عسى أن يستوقفني نفرٌ من أطفال الحياة الكبار، فأحط الدكة وأضع الصندوق على قوائمه، وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملايم قليلة يجودون بها على هذا الأشعث الأغر الذي شَبَرَ فيافي الزمان، وما له سوى أماله وهي لوافح، ونجم — سوى ذكرى نورها — خافت. لهذا سمَّيته «صندوق الدنيا».

ولا أزال أجمع له وأحشد، وما فتى السؤال الأبدي عندي مذ حملت الصندوق على ظهري «ماذا أصور؟» هذه هي المسألة كما يقول «هملت» في روايته الخالدة، والفرق

^١ من قصيدتي «كأس النسيان».

بيني وبين هملت أنه معنيٌّ بالحياة والموت، وبأن يكون أو لا يكون، وبأن يُبقي على نفسه أو يُبْعِها، أما أنا فلا يعنيني شيء من هذا، ولست أراني أحفل بالحياة ولا الموت، ولا الوجود ولا العدم، أو لعل الأصح والأشبه بالواقع أن أقول: إنني لا أرى وقتي يتسع للتفكير في هذا. ذلك أنني صرت كالذي زعموا أنه كانت له زوجة تُرهبه بالتكاليف وتُضنيه بالأعمال التي تعهد إليه فيها وتأمّره بأدائها، قالوا: فأشفق عليه صاحبه ورثى له، فأشار عليه أن يطلّقها لينجو بنفسه من هذا العناء، فطأطأ الرجل رأسه ثم رفعه وقال: «ولكن متى أطلقها؟ لا أرى وقتي يتسع لهذا».

كذلك أنا — أنا زوج الحياة الذي لا يستريح من تكاليفها — أقوم من النوم لأكتب، وأكل وأنا أفكر فيما أكتب، ألتهم لقمة وأخط سطرًا أو بعض سطر، وأنام فأحلم أنني اهتديت إلى موضوع، وأفتح عيني فإذا بي قد نسيت، فأبتسم وأذكر ذاك الذي رأى في منامه أن رجلاً جاءه فنقده تسعة وتسعين جنيهاً فأبى إلا أن تكون مائة، فلما انتسخ الحلم ورأى كفه فارغة عاد فطابق جفونه وبسط راحته وقال: «رضينا فهات ما معك». وأشتاق أن ألعب أولادي فيصنوني أن الوقت ضيق لا ينفس للعب والعبث، وأن عليّ أن أكتب، وأرى الحياة تزخر تحت عيني فأشتهي أن أضرب في زحمتها وأسوم سرحها، ولكن المطبعة كجهنم لا تشبع ولا تمل قولة «هات» وأكون في المجلس الحالي بحسان الوجوه رفاق القلوب وبكل ما كان يتحسر «مهيار» على مثلها ويقول:

هَهِ عَلَى الرِّقَّةِ فِي خُدُودِهَا لَوْ أَنَّهُا تَسْرِي إِلَى فُؤَادِهَا

فأشرد عنهن وأذهل عن سحر جفونهن، وأروح أفكر في كلام أكتبه صباح غد، وأشرب فلا أسهو، وأضحك لا أراني ألهو، ويضيق صدري فأتمرد وأخرج إلى الطرقات أمّع العين بما فيها مما تعرضه الحياة، فإذا بي أقول لنفسني: إنّ كيت وكيت مما تأخذه العين يصلح أن يكون موضوع مقال، فأقنط وأكر راجعاً إلى مكتبي لأكتب ... وهكذا كأني موكل بفضاء الصحف أملؤه، كما كان ذلك الشاعر القديم المسكين موكلًا بفضاء الله يذره.

وشرُّ ما في الأمر أن يجيء إليّ صديق فيقول: أقترح عليك أن تكتب في «كيت وكيت» وتحاول أن تفهم أن كيتاً وكيتاً هذين لا يحركان في نفسك شيئاً، ولا يهزان منها وتراً فلا يفهم؛ لأنه — على الأرجح — يظن أن الكتابة لا تكلف المرء جهداً، وأن القلم هو الذي يجري وحده بما يقطر من مراعه، وأن العقل والنفس لا دخل لهما فيما يخطه.

وإذا ظللت أكتب وأكتب هكذا فماذا يكون؟ لا أقول: إنني سأفلس، فإن الحياة لا تنفك أبداً جديدة في رأي العين والعقل، وهي لا تزال تسفر كل يوم عما يحرك النفس، ولكنني خليق أن أُجن ... نعم، وماذا عسى أن يكون آخر هذا النَّصَب؟ ودع الجنون، فلو كان إنسان يُجن من كثرة ما كتب لكان عنواني قد تغيَّر منذ أعوام جديدة، ولكن تعالٍ نجر حساباً صغيراً نُسَقِطُ منه كل ما ليس بالأدبي.

أنا أكتب في الأسبوع مقالين، فجملة ذلك في العام تبلغ المائة، وكل مائة مقال تملأ خمسة كتب كهذا، فسيكون لي إذن بعد عشرة أعوام — إذا ظللت هكذا — ثلاثون كتاباً غير ما أخرجتُ قبل ذلك، أي إن كنتي أنا وحدي تملأ مكتبة صغيرة يجد فيها القراء ما يشتهون ولا يعدمون منها متعة أو سلوى، وصاحبها لم يستفد إلا العناء.

والبلاء والداء العياء أن تكتب مرة مقالة فكاوية، والطامة الكبرى أن تكون المقالة جيدة، وأن تكون الفكاهة فيها بارعة. لا أمل لك بعد هذا أبداً ... لأن الناس يذهبون ينتظرون منك بعد ذلك أن تطرفهم بالفكاهات في كل مقال آخر. فإذا أخطأوا عندك ما يطلبون من الفكاهة فالويل لك، وأنت عندهم قد أصفيت، أو ضعيف لا تحسن أن تكتب، أو غير موفِّق فيما تحاول، حتى ولو كنت تكتب جاداً ولا تحاول أن تمزح أو تتفكَّه. والناس معذورون. فإن وطأة الحياة ثقيلة، وما دمت قد عودتهم أن تسليهم وتضحكهم أو أطمعتهم وأنشأت في نفوسهم الأمل في هذا فماذا تريد أن تتوقع؟ ولكن الناس — أيضاً — خلقاء أن يذكروا أن الحياة قد تكون ثقيلة على الكاتب، وأنه لعل في نفسه جرحاً وفي صدره قيحاً، وأنه عسى أن يكون ممن يودون لو يضحكون ويضحكون وغيرهم، ويتمنون لو استطاعوا أن يجعلوا الدنيا جنة رفاقة البشر، ولكن هموماً تجثم على الصدور تقلص الوجه وتطفئ لمة العين وتحبس البشر الذي يريد أن ينطلق، وترد الضحكة التي كانت تهم أن تفرقع.

لقد صدقتُ فيما كتبتُ به إلى صديق على صورة لي:

كالحجر لا يهدأ أو يستريح	أخوك إبراهيم يا مصطفى
لكنه من نفسه في ضريح	كالبحر حي الموج يقظانه
تحبه دون انسياج الفتوح	من حوله الشيطان لا تنثني
وكانت البرق المضيء المليح	خلت من المعنى لحاظ له

حواء يا أماه أنت التي أورثتني هذا البلاء الصريح
كم آدم أخرجتِ يا أمنا من خلده، بعد أبينا الطليح

إلخ إلخ إلخ.

وكما أن «صندوق الدنيا» القديم كان هو بريد «الفانوس السحري» وشريط
«السينما» وطليعتهما، كذلك أرجو أن يُقسَم لصندوقي هذا أن يكون — في عالم الأدب
— تمهيدًا لما هو أقوى وأتم وأحفل. وليبين غيري القصور، فقد أضناني قطع الصخور،
وتفتيت الوعور ...

شذوذ الأدباء

الناس متفقون على أن الأديب على العموم، والشاعر على الخصوص، صنو المجنون ونُدّه وقريعه، وقد لا يقولون ذلك بألسنتهم ولكنهم يقولونه بسلوكهم نحوه، فهم يفترضون فيه الشذوذ عن المؤلف ويتوقعونه ولا يستغربونه ويحملون كل ما يصدر عنه على هذا الحمل ويردونه إلى هذا الأصل عندهم، وليس في هذا إكبار منهم له، فإنه بسبيل من سلوكهم نحو صنوف الملتائين الذين يطلقون عليهم وصف «المجازيب» كلا الفريقين مقبول عندهم على التسامح والعطف والمرثية، ولو أن الناس رأوا رجلاً يلبس ثيابه مقلوبة، أو يمشي على رأسه وقيل لهم إنه شاعر لاقتنعوا ولبطل العجب، كأن المشي على الرأس شيء يوائم الشعاعية أو هو مما تستلزمه حين يزخر عباها ...

عرّفتني مرة أحد الإخوان باثنين من الأعيان كانا معه في مجلس، فكان مما وصفني لهما به أنني شاعر، فأبرقت أساريهما، وغمر البشرُ وجهيهما واستغنيا عن «تشرّفنا» واعتاضا منها «ما شاء الله» و«سبحان الفتاح» وأقبل عليّ أحدهما يربت لي ظهري ويمسحه لي بكف كمضرب الكرة ويقول: «أسمعنا شيئاً» كأنما كنتُ مغنياً على الرابطة، ولو أنني كنته لاستحييت أن أجييهما إلى ما طلبا على قارعة الطريق، ولشد ما خفت — وهما يلحّان عليّ — أن يمد أحدهما يده إليّ بقرش ...

وقد يتفق لي أن أكون مع جماعة من الإخوان فأفضي بالملاحظة أو الفكرة، أحسبني وُفقت فيها وكشفت عن أستاذية وبراعة ودقة فلا أكاد أفرغ منها حتى أسمع من أحدهم أن هذا «خيال شاعر»، وليته مع ذلك يعني شيئاً سوى الفوضى والهذيان، وقد أسكت وأشغل نفسي عنهم بشيء أفكر فيه فأنتبه على التغامز.

والبلاء والداء العياء أن المرء يتحرّى أن يجعل سلوكه مطابقاً — على أدق وجه — للعرف والعادة في كل صغيرة وكبيرة، فلا يرى أن هذا يزيدُه إلا شذوذاً في رأيهم. كان

هذا الشذوذ المفروض فيه يبيح لهم أن يشدوا هم معه. كنتُ ليلةً مستغرِقاً في النوم — ولعياً كنتُ أعطُ أيضاً. وإذا بالباب يُقرَع كأن الواقف به قد استقر عزمه على تحطيمه، ففزعت وقمت إلى النافذة أسأل عن هذا الطارق فقال: فلان. فحلَّ العجب والحيرة محل الفزع، ولم يكن فلان هذا ممن أتوقع زيارتهم في النهار فضلاً عن الليل، وفي الصيف فضلاً عن الشتاء ببرده القارس ومطره المنهمر، وكانت الساعة الثانية بعد نصف الليل، فلولا دهشة المفاجأة ولجاجة الرغبة في الوقوف على سر هذه الزيارة المزعجة لقفته من النافذة بكل ما في الغرفة من أحذية ومخدات، بل لفككت السرير وهشمت له رأسه بأعمدته، من النافذة أيضاً. فقد كان فوق ذلك كله من أثقل خلق الله.

ونزلتُ إليه والمصباح في يدي، وفتحت الباب ووقفت في مدخله «حجر عثرة» في سبيله وبودئي لو أستطيع أن أكون «حجر منية»، فجرى بيننا هذا الحديث:

هو: ليلتك سعيدة.

أنا (مصححاً): نهارك سعيد.

هو: أه صحيح ... نهارك سعيد. هل كنت نائماً؟

أنا: نائماً؟ وماذا كنت تظنني فاعلاً غير ذلك؟ أكنت تتوهم أنني هنا حارس؟

هو: ها ها ... هاهاها ...

أنا: ها ها؟؟ ماذا تعني بهاهك هذه؟ ألا تشعر أن من واجبك أن تبين لي السبب في إزعاجي في ساعة كهذه؟ ألا ترى أن ها ها التي تملأ بها طباق الجو لا تكفي، وأن خيراً لك أن تضم فكك قليلاً وتتكلم بلغة مفهومة؟

هو: لقد كنت أظن أنك ...

أنا: كنت تظن ماذا؟

هو (وعلى وجهه ابتسامة جعلته كجمجمة الميت): لم يخطر لي والله أنك نائم.

أنا (بصوت هادئ ولهجة مرة): ولماذا بالله؟

فترك الجواب على هذا وقال: لست أستغرب أن تتركني واقفاً بالباب في هذا البرد وإن كنت قد قطعت إليك أربعة كيلو مترات مشياً على قدمي، فإن لكم — معاشر الشعراء — لأطواراً وبدوات غير مأمونة.

فأطار صوابي تحميله إياي اللوم على ذنبه، ولم أعد أحفل أهو أقوى مني أم أضعف، فقبضتُ على عنقه وصحتُ به: لقد كان ينبغي أن تمشي إلى جهنم. وسأدفنك حياً إذا رأيتك هنا ليلاً أو نهاراً. أسمعت؟

ودفعته عني فانطلق يعدو كالقنبلة.

وَتَمَّ مَنْ يراني أنسى شيئاً أو أضعه في غير موضعه أو أهمل أمراً أو أطيل الصمت أو أفعل حتى ما يفعله الناس ... أكل أو أشرب أو أنام، إلا أحالوا عليّ الأدب وتخلوا فيما أنا فاعل أو تارك شذوذاً ملحوظاً حتى ضقت ذرعاً بهذه الحال وصار وكدي أن أقنع كل مَنْ يتيسر لي إقناعه أنني لست بالأديب، وأنّ قرَضَ الشعر لم يكن مني إلا لهواً وتسليّة، وعسى أن أكون أفلحت فليس أمضُ للإنسان من أن يرى الناس يعدونه غير مستؤل.

الصغار والكبار

قلت لابني عصر يوم، وفي نيتي أن أزجره زجرًا قويًا عن العبث بكل ما تصل إليه يده: «أتحب أن تخرج معي اليوم؟» وسبقته إلى الباب الخلفي المفضي إلى الصحراء، وقلما كنت أستصحبه لتعذر السير عليه في الرمال، فرمى الكرة ومضى يعدو خلفي ليلحق بي. فلما اطمأن بنا السير شرعت أستقصي معه ما يعلم وما يجهل وما ينبغي أن يعلم، وكانت خلاصة دفاعه — بألفاظي أنا لا بألفاظه هو — أنه يكلف العلم بأشياء عديدة يجد عسرًا في فهمها وإدراكها، مضافًا إلى ذلك أنه لا يدرى كيف يمكن أن تعنيه هذه المعارف التي يُطلب منه الإلمام بها؟! وأن كثيرًا مما يشتهي أن يعرفه ويلدُّ له ويمنعه أن يحيط به، لا يجد من يدلّه عليه.

هذا فيما يتعلق بالعلوم والمعارف، أما من حيث السلوك والسيارة، فالمسألة أدق والمشكل أشد تعقّدًا، ذلك أنه لا يزال يُلقّن — في المدرسة وفي البيت — أن للخير والشر آثارًا ونتائج تحيره جدًّا حين يتأملها أو يحاول أن يردّها إلى أسبابها، مثال ذلك: أنه غافلنا مرة واقتطف من الكرمة عنقودًا اضطره اقتطفاه إلى المخاطرة بالتسلق، وأكله، ولم يكتمني أنه كذب حين سُئل في ذلك فقال: إن العنب كان يثب إلى فمه. ومن العجيب — في رأيه هو — أنه كان في ذلك اليوم أصح وأنشط وأنه لم يصبه سوءٌ ما، وأن الله لم يعاقبه لا على الكذب ولا على أكل العنب خلسة، ولا على الخطأ في كظ معدته وإدخال طعام على طعام. ولم أكن أتوقع من ابني هذه المحاضرة التي باغتني بها وعارض لي فيها الواقع بما في الكتب وما على أسنة المربين، فحرت ولم أدِرِ ماذا أقول له. وتحلل العزم على تأنيبه وألفيتني أفكر في الطفولة وطبيعتها، وفيما نمسخ به هذه الطبيعة بما نحاول من إكراهها عليه وصبها فيه، ثم تملكني روح العبث الذي أنكره عليه والذي كنت أهم أن أزجره عنه، فقعدت على الرمل وأقعدته أمامي وقلت له بعبارة أقرب من

هذه إلى مستوى إدراكه: «اسمع. إني أفكر الآن في تأليف كتاب على نمط جديد، كتاب مدرسي ولكنه يخالف كل ما في المدارس من الكتب، كتاب لذيذ ممتع جداً، ولكنني لا أستطيع أن أضعه وحدي، بل لا بد لي من معين، فما قولك في معاونتي؟ هل تقبل أن تشاركني في تأليف هذا الكتاب؟»

فنهض إلى ركبتيه وأقبل على وجهي يربت لي خدي بكفيه الصغيرتين ويسألني وهو يضحك: «يا بابا ماذا تقول؟»

أقول: «إني أريد — بمعاونتك — أن نصلح هذه الدنيا التي نراها — أنا وأنت — مقلوبة.»

قال: «وكيف تفعل ذلك؟ وكيف أساعدك أنا؟ وماذا يسعني؟»

قلت: «يسعك شيء كثير جداً، فليس كونك صغيراً بمانع أن يكون لك عمل كبير. ولكن لا تربكني بكثرة الأسئلة، وخير لنا وأنجح لقصدنا أن نتقصى الموضوع على مهل. ويجب قبل كل شيء أن أكون واثقاً من استعدادك لمعاونتي ومن أنك ستفكر تفكيراً جدياً فيما يستقر عليه رأينا.»

فتعهد لي بذلك. فقلت له: «أليست شكواك أن الكبار من أمثالي ...»

— «ليسوا من أمثالك يا بابا ...»

— «حسن، أليست شكواك أن الكبار — غيري — لا يُحسنون تعليم الصغار أمثالك؟»

قال: «نعم.»

قلت ماضياً في كلامي: «وأن الكبار يُلزمون الصغار سلوكاً يبدو للصغار غير معقول ويعاملونهم معاملة يمكن أن نسميها غير عادلة؟»

قال: «نعم. وأنا أقول لك لماذا ينبغي دائماً أن أنام في الساعة الثامنة، لماذا لا يُسمح لي بالسهر أحياناً مع الكبار إلى أن أحس بالحاجة إلى النوم؟ وإذا لم أنم كما تريد جدتي — حتى في النهار — فإنها تقول لي: إني ولد عنيد.»

قلت: «هذا صحيح، وإذا اتفق أن دار أمامك حديث وبداء لك أن تقول كلمة كغيرك من الجالسين، زعموا أن هذا منك قلة أدب وسوء سلوك، أليس كذلك؟»

فهز رأسه مرات وهو لا يستطيع النطق من الإغراق في الضحك ومضيت أنا في ملاحظاتي التي شاقته وأعجبته وأرضته فقلت: «وإذا رأوك تلعب بالكرة قالوا لك: إنك شقي وإن اللعب بالكرة غير محمود، وإذا سكت ولم تلعب ولم تتكلم، زعموا أنك سيئ الطبع، أو ادعوا أنك مريض وسقوك على كره منك ملء فنجان من زيت الخروع ...»

فقاطعني متمماً لي ملاحظاتي: «وإذا كانوا يبحثون عن شيء ولا يجدونه ظنوا أنني أنا الذي خبأته، ثم إذا وجدوه حيث وضعوه نسوا أنهم هم الذين فعلوا ذلك واتهموني أنا، وأجادلهم وأبين لهم أن لا دخل لي في ذلك كله، فيختمون حوارهم معي بأنهم تعبوا من الكلام معي كأني أنا لم أتعب أيضاً من سماع كلامهم.»

فقلت بدوري مقاطعاً: «وإذا كسروا قلة أو كوباً لم يسألوا عيونهم لماذا لم ترها؟ كأن عيونهم ليست مكلفة أن تبصر شيئاً أبعد من أنوفهم، بل راحوا يتساءلون عن وضع القلة هنا. كأن واضعها هو المسئول ...»

قال: «أما إذا كسرتها أنا فالويل لي من شيطان يجب أن يُحبس في غرفته منفرداً.» قلت: «وإذا كلفوك أن تأتي بشيء ولم تجده لأنه ليس في المكان الذي بعثوا بك إليه، أو لأن شخصاً نقله، فإنك تكون في رأيهم ولدًا خائبًا وغيبياً لا يفهم.»

قال: «وأنا دائماً المخطئ وهم أبداً على صواب حتى صرت واثقاً أنني لا يمكن أن أكون مصيباً في عمل أو قول، وهذا يحيرني جداً ويربكني يا بابا.»

قلت: «أظن الآن أن موضوع الكتاب صار واضحاً ظاهر الحدود بين المعالم، وسنقلب فيه المسألة ونجعل الصغار هم العقلاء الحكماء الذين لا يخطئون أبداً، والكبار هم الأغبياء البلاء الذين لا يصيبون والذين يحتاجون إلى الرقابة والإرشاد والتأديب والزجر.»

فطار الغلام من الفرح، ووثب على رجليه وانهاه عليّ تقييلاً وألحَّ عليّ بالسؤال: «أصحيح ما تقول يا بابا؟»

قلت: «نعم. وسنسميه «المختار في تهذيب الكبار»، ونجعل الصغار هم الذين يبقون في البيت لتدبير شئونه، والكبار هم الذين يذهبون إلى المدرسة وتُلَبِّسهم ما يلبس التلاميذ والتلميذات الآن من البذلات القصيرة ونقص لجدتك شعرها ونخرجها في قبة من قبعات البنات الصغيرة ونضع لها على صدرها «مريلة» ونبعث بها إلى المدرسة، وإذا لم تحفظ دروسها عاقبناها بالوقوف ووجهها إلى الحائط، وإذا أكثرت من اللعب حرمانها الحلوى، وإذا لم تنم في الساعة الثامنة عددناها سيئة الخلق عنيدة ولم نخرج بها للرياضة يوم الجمعة.»

قال: «ويجب أن نحرّم عليها اللعب إلا مع لداتها من الجدّات نظائرها، وإذا وجدناها تلاعب واحدة من الشواب عاقبناها بالحبس في غرفتها، وإذا جلست ساكنة أو لم تتناول طعامها بإقبال أنمنها في سريرها وجرعناها ملء كوب من زيت الخروع، وإذا كرهت

طعمه أو تقززت من مذاقه قلنا لها: إنه يفيدنا وإننا نحن نعرف ما يصلح لها وما لا يصلح، وإذا جلست معنا واشتركت في الحديث انتهرناها بنظرة، فإذا لم تكفَّ أفهمناها أن الكبار لا يصح أن يقاطعوا الصغار ...»

قلت: «وإذا سألتنا — أعني إذا سألت الصغار — عن شيء نجهله قلنا لها: إن هذا الأمر لا تستطيعين فهمه وإدراكه الآن، والسيدة المهذبة يجب ألا تُكثِّر من الأسئلة أو تحشر أصابعها فيما لا تفهم.»

قال: «وإذا أكلت من الشيكولاتة أكثر مما يوافقها لا نأخذها إلى السينما وحرمانها مناظر شارلي شابلن وأضرابه.»

ثم رفع إليَّ وجهه وقد بدت عليه أمارات التفكير الجدي وسألني: «ولكن هل نسمح لها بالاختلاط بالرجال وملاعبتهم؟»

قلت: «بقدر. وعلى أن يكون لنا — أعني للصغار — حق المراقبة والتدخل إذا وجدنا أن الضرورة تقتضي ذلك.»

قال: «والدروس التي نلتقاها الآن ألا يتغير منها شيء؟»

قلت: «أكثرها يبقى كما هو، ولكن الموضوع من كتب المطالعة والمحفوظات يتغير؛ لأنه في الأصل مجعول للأطفال، وهذا يعود بنا إلى مشروعنا، فإن الذي أفكر فيه وأريد منك أن تعينني عليه، هو كتاب يحتوي طائفة متخيرة من القصص والموضوعات يتعلم منها الكبار آداب السلوك وما لهم وما عليهم في الحياة، والواجبات المفروضة عليهم نحو الصغار أولياء أمورهم، ولذلك ينبغي أن يُلغى من الكتب أمثال «سمير الأطفال» و«القراءة الرشيدة» للأطفال، فإنها جميعًا لا تصلح لمشروعنا.»

قال: «ومن يؤلف هذه القصص؟»

قلت: «أنا وأنت، ولسنا نحتاج إلى تعب كبير؛ لأن الأمر لا يتطلب فيما أقدر إلا تحويرًا قليلًا يجعل القصة للكبار بدلًا من الصغار.»

قال: «وهل نطبع الكتاب ونبيعه؟»

قلت: «ولم نتكلف وضعه إذا لم نطبعه ونبيعه؟»

قال: «وهل يشتره الكبار ويقرءونه؟»

قلت: «إذا لم يفعلوا فإن في وسعي أن أوعز إلى نفر من أصدقائي بأن يحملوا في الصحف على الكتاب حملة عنيفة، وبأن يصفوه بأنه مخالف للآداب ومناهِ لكل ما درجت عليه الإنسانية، وهذا وحده كفيلاً بترويجه.»

قال: «وهل كل ما يخالف الآداب يطلبه الناس؟»

قلت: «لا أستطيع أن أقول: نعم أو لا، ولكن الذي أريد أن أقوله هو أن حب الاستطلاع يدفع الناس إلى طلب هذا الكتاب الفريد في بابه.»

قال: «وكيف تقرأه جدتي وهي أمية؟»

قلت: «إن الأمية الفاشية بين الكبار من أمثال جدتك مما يسوِّغ مشروعنا ويجعله ضرورياً، أليس الواقع الآن في الأغلب والأعم أن الجهلاء هم الذين يتولون تربية المتعلمين أمثالنا أو توجيههم في الحياة واختيار ما يصلح لهم؟ والأمر ينبغي أن يكون على نقض ذلك.»

قال: «ولكن إذا لم نحسن تدبير المنزل أو إذا لم تُجِدِ الصغيرات مثلاً طهي الطعام وتذمر منه الكبار؟»

قلت: «لن يعوزنا كلام نسكتهم به كما يفعلون بنا الآن، وما علينا إلا أن ننتهمهم بالبطر والتدلل القبيح ونزجرهم عن ذلك.»

فضحك وقال: «إنك ماهر جداً يا بابا، ولا بد أن يكون الكبار قد ضايقوك جداً في صغرك فأنت الآن تريد أن تنتقم منهم.»

ثم ألقى إليّ نظرة خبيثة وهو يسأل: «هل كان أبوك ثقيلاً يا بابا؟»

فتماسكت بجهد وسألته بدوري: «ثقيلاً مثل مَنْ؟»

قال: «لا أعني مثل أحد ولكنه سؤال، فهل أخطأت فيه؟»

قلت: «كلّاً، ولم يكن أبي ثقيلاً فيما أذكر، وعلى أنه لم تُتَح له معي فرصة كبيرة لذلك، فقد مات وأنا صغير.»

وهنا رأيت أن الأحزم أن نعود مخافة أن يسترسل في مثل هذه الأسئلة المخرجة، التي جرها عليّ التبسط معه في هذا الموضوع. والأطفال — كما يعرف ذلك مَنْ كابدهم — لا يستطيع المرء أن يتكهن بما يجري في رعوسهم أو يعرف ماذا يتوقع منهم، فإن لهم وثبات غير مأمونة.

فنهضت وطلبت منه أن يفكر في الموضوع، وبينما كنا عائدَيْن سألني فجأة: «وأنت يا بابا هل نضعك مع الكبار أم مع الصغار؟»

فدفعت الباب ولم أُجرِ نطقاً.

الحقائق البارزة في حياتي

تمهيد: حدث منذ عامين، أو نحو ذلك ... أن حرمت الجريدة التي كنت أتولى رئاسة التحرير فيها، حقاً، ولا داعي هنا لبيان الموضوع فقد مضى أوانه، وليس هذا على كل حال محله، فكتبت على أثر ذلك مقالاً قوياً — أو لعل الأصح أن أقول: إنه عنيف — نقلته صحيفة فرنسية بنفسه ونصه، وبعد يوم وجدت على مكتبي بطاقة «دكتور» يرأس صحيفة نمسوية وكلاماً في ظهر البطاقة حسبته في أول الأمر أمانياً، ثم قيل لي إنه فرنسي، ثم تبين أنه إنجليزي، فاقتنعت ولم أوصل البحث مخافة أن يتضح أنه عربي وأوجز فأقول: إنني استقبلت الزميل الفاضل في مكتبي في الساعة التي اتفقنا عليها تليفونياً. ولم يتجاوز الفرق بين ما فهمته أنا وما فهمه هو أربع ساعات لا أكثر، فكنت أنا جالساً أمام مكتبي في الساعة الثالثة مساءً ووافاني هو في الساعة السابعة مقدماً بين يديه اعتذاره من حضوره قبل الموعد بنصف ساعة، ودار الحديث بيننا فأفضيتُ إليه بجواب ما أعتقد مخلصاً أنه سألني عنه، وبياضح ما أشكل عليه فهمه من موضوع الخلاف السياسي ومواقف الأحزاب في ذلك الوقت وما إلى ذلك مما يتصل به من قريب أو بعيد، واعتقدت أن الأمر انتهى عند هذا الحد ولم يخالجنني شك في أن الله أرحم من أن يبلوني بحديث آخر. ولكن المقادير جرت — لسوء الحظ أو لحسنه — بغير ذلك، فعاد الدكتور الفاضل يرجو مني شيئاً آخر لا أقل من أن أتفضل عليه بترجمتي أو تاريخ حياتي، وكان الدكتور أظرف وأكبر من أن أرفض له طلباً، ولكن تاريخ حياتي! ... تصوّر هذا؟ فأحلتها أولاً على ترجمة كنت قد كتبتها منذ سنوات تمهيداً لمختارات من شعري، وقد نُشر ذلك كله في كتاب «شعراء العصر»، ولكنه اعتذر وقال إنه فهم من كلامي أن الترجمة مكتوبة باللغة العربية وأن الكتاب مطبوع في سوريا، ووقته أضيق من أن يسمح له بالسفر إلى ذلك القطر وإن كان لا شك عنده في أنه لو تيسر له السفر لألفى الترجمة التي أشير إليها وافية بالعرض، ثم تفضل فذكر لي أنه علم من بعض من اتصلت أسبابه بأسبابهم من

المصريين أني من رجال المدرسة الحديثة في الأدب، وأن هذا هو الباعث له على الإلحاح عليّ في الرجاء أن أوافيه بترجمتي، فسرتني هذا ورأيت فيه فرصة لانتشار اسمي إلى ما وراء مصر واستفاضة ذكري على السنة الغربيين. وتوقعت بعد أن أجيبه إلى سؤاله أن يتقدّم إليّ واحد أو اثنان أو ثلاثة من ناشري الكتب في أوروبا يطلبون السماح لهم بترجمة كتبتي وإذاعتها في العالم الغربي، فلا يعود المازني بعد محتاجاً إلى وظيفة ثقيلة مضمّنية كرياضة التحرير في صحيفة يومية. ففكرت يدي مغتبطاً وقلت له: إنني طوع أمره ورهن مشيئته، ولكن بي حاجة إلى يوم أو يومين أجمع فيهما الحقائق البارزة وأحضرها إلى ذهني استعداداً للإجابة، وفي اليوم المعين تلاقينا فدار بيننا الحديث الآتي:

هو: إنني مستعد يا سيدي. تفضل.

أنا: أرجو أن تغفر لي لهجة الزهو التي قد تحسّتها من كلامي، ولا شك أن التواضع فضيلة ولكن الحقيقة أسمى وأجل. أليس الأمر كذلك؟
هو: بلا ريب.

أنا: والحقيقة أني من بيت قديم عريق جداً يستطيع أن يحدثك عنه آلاف من الناس لو كلّفت نفسك سؤالهم.

هو: لا شك عندي في ذلك يا سيدي (وانحنى لي).

أنا: وأنتم — معشر الأجانب — تشمخون علينا بأنوفكم كأنّ بلادكم هي وحدها التي تعرف الأرستقراطية؛ لأن فيكم من يستطيع أن يعدّ عشرة أو عشرين من الجدود. ولعل أكثرهم كان من الفتاك وقطاع الطرق. فأنا في مقدوري أن أتلو عليك أسماء مئات من الجدود لا عشرة ولا عشرين ليس من بينهم إلا من هو مستفيض الذكر. ولن تجد أعتق من هذا النجار ولا أعرق من ذلك الفخّار.

هو: آه؟

أنا: نعم يا سيدي، فإن جدي الأعلى رجل لا شك عندي في أنك سمعت به وقرأت عنه إن كنت قد قرأت شيئاً.

(فبدا عليه الاهتمام ورفع سن القلم عن الورقة ومنحني أذنه — واحترامه

أيضاً — وقال، وقد رأى سكوتي ريثما يتم أهبتة: «إنني مُصغ.»)

أنا: وهو لا أقل من آدم نفسه.

(فوقع القلم من بين أصابعه وهوت يده إلى جانبه وخُيل إليَّ لحظة أنه سيسقط عن كرسيه عجزًا عن احتمال كل هذا المجد، وسرني أن أرى فعل كلامي في نفسه، ولكنها لم تكن سوى لحظة ثم نهض فجأة ومد إليَّ يده، فنهضتُ مثله ومددتُ له يدي وقد ظننت أنه سيستأذن، غير أنه خيَّب أمني وقال):

هو: لي الشرف يا سيدي بأن أقول لك: إنني أيضًا أمتُّ إلى هذا الشيخ الجليل بسبب، وتحقيقًا لذلك أقول: إن جدتي العليا حواء فنحن إذن قريبان.

(فهزرت يده سرورًا بهذه القربى، وقلت):

أنا: لقد سهَّلت عليَّ الأمر جدًّا فما أظن بك — وأنت غصن من هذه الدوحة الفيئانة — إلا أنك تعرف كيف كانا في الجنة وماذا أخرجهما منها، وكيف قتل جدي قابيل جدي هايبيل وإن كانت الكتب تقول إن أحدهما مات ولم يعقَّب ولدًا، وأظن جدك القليل، وغير ذلك من الحوادث البارزة التي لا تزال طبقة ترويه عن طبقة وجيل يتلقفها من جيل إلى يومنا هذا، فلنمض إلى مَنْ هم أقرب إلينا.

هو: إن أسرتنا الكريمة أشهر من أن تحتاج إلى تعريف، فأرجو ألا تجشم نفسك ...

(فلم يعجبني أن يحشر نفسه في أسرتي بعد أن أخرجته منها ونويت ألا أعده — فيما بيني وبين نفسي — إلا من سلالة معاتيق جدي قابيل، بيد أنني كتمت هذا وقلت مقاطعًا له):

أنا: سأقتصر على واحد أو اثنين من مشاهير أجدادي الأقربين لتعرف من أية أيكة كريمة خرج هذا الفرع الذي يتشرف بأن تراه أمامك (انحناء منه ومني) فمنهم: مالك بن الريب بن حوط المازني، وكان زعيمًا لقومه وبلغ من قوته وسطوته أنه كان ورفقاؤه — أعني أتباعه — يقطعون الطريق على رعايا الخليفة ويسومون الناس ما شاءوا، غير أن الخليفة لم يحتمل هذه المنافسة ولم يُطَق صبرًا على هذا المزاج فطلبه، وكان مالك قد رأى أن البلاد لم يبقَ بها ما يستحق أن يُؤخذ فتركها للخليفة ومضى بثلته إلى فارس حيث لم يكفَّ عن ركوب الناس بالأذى حتى أجرى الوالي عليه مبلغًا شهريًا، فلم توافقه هذه الحياة الوديعة فمات بعد الكف بقليل.

ومن مشاهيرهم: هلال بن الأسعر المازني، كان رجلاً فيه فكاهة عملية وكان يطلو له أن يركب الناس بالدعاية، فكان يشحذ سيفه القديم ويخرج في الظلام فإذا مر به أحد شكه بالسيف في بطنه، فيثب ثم يقع على الأرض فيُغرب جدي في الضحك ويذهب إليه ويلطفه ويخفف عنه حمله، ألا لقد كان مفطوراً على الفكاهة.

ومن أكرمهم أيضاً: مسعود بن حرشة المازني، كان شديد العطف على الناس والمرثية لهم فعاش عمره لا عمل له إلا إراحة إخوانه في الإنسانية من الإبل ومما يحملون، ولكن حساد فضله وشوا به لعامل الخليفة فقطع له نصفه الأعلى وعلّقه في مكان ظاهر في سوق كبير، وأتاح له بذلك أن يشرف على الناس ويتأملهم زمناً كافياً.

هو: قد اقتنعت يا سيدي بأن فرعكم أنبل وأشرف، وبودي لو تسمحون لي بطائفة قليلة من الأسئلة عن شخصكم الكريم مخافة أن تنسوه في وسط هذا العباب الطامي من المجد التليد.

(فلم أرتح إلى هذه المقاطعة التي لا شك عندي في أن الحسد هو المغري بها. كنت أريد أن أغمره بسيل من هذه الحقائق التي ترفع الرأس وتطيل القامة، غير أنني قدّرت أن الفرصة لم تضح، وأنها لا محالة سائحة، فقلت له: تفضل.)

هو: كم عمرك؟ إذا جاز أن أتقدم إليكم بمثل هذا السؤال.
أنا: سيكون في أغسطس المقبل — في ٩ أغسطس — عشرين سنة.
هو: كيف؟ عشرون سنة فقط!
أنا: نعم.

هو: وهل تسمح لي أن أسألك في أي سنة ولدت؟
أنا: إذا لم تخني الذاكرة فإني وُلدت في سنة ١٧٩٠ ميلادية.
هو: ١٧٩٠؟! كيف يكون هذا ممكناً؟!
أنا: لا أدري وهذا بعض ما أعجب له؟
هو: ألم تقل: إن عمرك عشرون سنة؟
أنا: نعم.

هو: ولكن عمرك — إذا حسبناه من تاريخ ميلادك — يكون مائة وستاً وثلاثين سنة، فكيف تعلق هذا التفاوت؟
أنا: لا أعلمه. وكثيراً ما عجبت له. وإذا كان هناك تفاوت فلا شك أن مرجعه إلى أنه فاتني أن أدون هذه الحادثة السعيدة ساعة وقوعها.
(ورأيت فرصتي سانحة فاغتنمتها لأكر إلى مجد أجدادي فقلت):

أنا: أزيد على ذلك أنني ولدت بغير أسنان، فأنا لهذا أفضلُ كثيرين من الآدميين، غير أن هذا حرمني القوت زمناً طويلاً فليثت لا أطعمُ غير اللبن، وهذا تعليل ضالّة جسمي واضطراري بسبب ذلك إلى القعود عن المعالي التي كلف بها أجدادي الأماجد من أمثال ابن أبي سعيد المازني. فقد وُلد بأسنانه كاملة وكان مبطاناً أكولاً وفحلاً عظيماً مرهوب الجانب، وعرف له الخليفة فضله فاختره بغرفة في قصره وأقام له عليها اثنين من الحجاب وأمرهما ألا يدعاه يجشم نفسه حتى الخروج من الغرفة وأن يقوموا هما بخدمته فبقي في هذا القصر مكرماً مبعجلاً مخدوماً تسعة عشر عاماً، ومنهم أيضاً أبو هلال بن ...
هو: مهلاً يا سيدي، فإن الرجوع إلى هذا معناه الشك في صدق ما جاهرت به من اقتناعي بكرم مَحْتِدِكَ، فهل تسمح لي بأن أسألك متى اشتغلت بالصحافة؟
أنا: في ١٨١٩.

هو: كيف؟ وعمرك كما تقول دون العشرين؟
أنا: لا أدري! وهذا أيضاً بعض ما يحيرني.
هو: إن هذه التواريخ لا أمل في إصلاحها على ما يظهر، فلنسأل عن شيء آخر، هل لك إخوة؟

(فاغتنمت هذه الفرصة لأطير له صوابه.)

أنا: دعني أفكر، نعم، كان لي أخ ... في الرضاعة.

هو: ماذا تعني؟

أنا: أعني أنه كان ابن مرضعتي.

هو: وهل مات؟

أنا: لا أدري.

هو (بتأثر): اختفى فلم تسمعوا عنه خبراً؟

أنا: كلاً. بل دفناه.

هو: دفنتموه؟ هل تريد أن تقول إنه دُفن دون أن تعلموا أحي هو أم ميت؟

أنا: كلاً. فما من شك أنه كان ميتاً.

(فضحك وقال: مات ودُفن فماذا تريد؟ أظن أن المسألة واضحة جداً فماذا يحيرك فيها؟)

أنا: أظن أن المسألة واضحة؟ ربما. أما أنا فأخالفك.

هو: لماذا؟

أنا: لأني لا أدري إلى هذه الساعة أينما الذي مات أنا أم هو؟ أفهمت الآن؟

(فانطلق يقهقه كأنما كان في جوفه رعد مخزون وصربت عليه حتى فرغت الذخيرة، ثم قلت له بلهجة غريبة مرعبة: «هل تستطيع إذا قصصت عليك القصة وأفضيت إليك بالسر أن تنبئني عن يحدتك الآن، أهو المازني أم من كان ينبغي أن يكون خادمه وإن كان أخاه في الرضاعة؟»)

(فارتبك وبدت عليه دلائل الحيرة والدهشة وعلا وجهه السهوم. فاغتبطت وأقسمت لأزيدنه ارتباكاً ولأطيرن من رأسه هذا الولع بتراجم الناس، فقلت: «اسمع يا صاحبي، لقد كان لمرضعتي طفل في مثل سني وكان شديد الشبه بي، وكان يلبس من ثيابي فيزيد الأمر بيننا اختلاطاً، وما أكثر من كان يتوهم أننا توءمان، وكثيراً ما كان يقضي هذا الولد لياليه في غرفتي على أنه أنا، بينما أكون أنا نائماً مع الخادمة، وهكذا نشأنا، فشبت أنا على أنني المازني وشب هو على أنه الخادم، وقد يكون الأمر على خلاف ذلك، وما يدريني ويدريك أن الأمر لم يختلط على ظئري وهي تغسلنا في الحمام؟ ولا أطيل. كبرنا نحن الاثنين، المازني وخادمه محمد، أو محمد وخادمه المازني، فما أدري الآن من أنا على التحقيق؟ كبرنا إذن وسرق الخادم مرة من الجار فحُبس لذلك بضعة شهور لا أذكر عددها، وعسى أن يكون المازني هو الذي سرق وحُبس خادمه،

ربما، ولكن هذا لا قيمة له، فكثيراً ما كنت أنا أخطئ ويضرب خادمي عني، أو بعبارة أخرى ربما كانت أصح وأقرب إلى الحقيقة، كثيراً ما كان هو يُخطئ وأضرب أنا عنه، هذا إذا ذهبنا نعتبر الخط الذي لعله أصاب عنوانينا أو اسمينا.»

هو: أرجو المعذرة، ولكن هل من عادة المصريين أن يضربوا خدَمهم إذا أخطأ أبنائهم؟

أنا: لست أعلم أن هذه عادة أحد من المصريين، ولكني أريك بعض آثار التشابه بيني وبين الخادم واحتمال التصاق الاسم بغير صاحبه.

هو: ولكني لا أفهم ...

أنا: ستفهم كل شيء إذا تريثت قليلاً، ولم يُقلع الخادم عن السرقة والتلصص، أو لم يكف المازني عنهما، فما يعلم الحقيقة غير الله، ومن لعله خلطني به في الحمام ونحن طفلان رضيعان؟ فألف الإجمام، واتفق في ليلة أنه كان يسطو على بيت فأحس به السكان ففر إلى السطح على نية الوثوب من سطح إلى سطح وهكذا حتى يهتدي إلى طريق مأمون للهبوط إلى الأرض، وبينما كان ماشياً على سور أحد السطوح زلزلت الأرض، فهوى ومات والآن نبئني — إذا استطعت — أيُّنا الذي مات؟ أهو أنا أم هو؟ أهو المازني أم خادمه؟

هو: ألم يكن هناك شيء — علامة مثلاً — تميزكما؟

أنا: وإذا تذكرت ما قصصته عليك عن آبائي وأجدادي الأماجد، وما كانوا يتوخونه جميعاً من الأساليب لاكتساب رزقهم، وبعبارة أخرى أخشى إذا تذكرت أنهم كانوا جميعاً بفضل الله فتأگا وقطاع طرق ولصوصاً، ألا يكون الأقرب إلى المعقول والأشبه أن يكون الخادم المتلصص هو المازني وأكون أنا الذي وقعت من فوق السطح ومت؟

هو: لا أنكر قوة منطقك ولكني أسألك مرة أخرى — ألم تكن ثَم علامة تميزكما؟

أنا: هل تحسبني أبله؟ وفيم إذن قلت لك: إن للمسألة سرّاً؟

(فأبرقت أسارير وجهه ولمع السرور في عينيه وقال: لا أحسبك ترضن عليّ بحل هذا اللغز بعد أن أوجعت رأسي بعقده؟)

صندوق الدنيا

أنا: كلا! لقد كان هو أسود زنجياً وأنا كما ترى أسمر.

فنهض وانحنى وقال: «أشكرك.»

ولم أرَ بعد ذلك وجهه.

اللغة العربية بلا معلّم

وقفت مرة بباب مكتبة أتأمل معروضاتها من وراء الزجاج، فأخذت عيني كتيبًا صغيرًا يعلمُ الأجانب «اللغة العربية بلا معلّم» فراعتني هذه الجرأة، وتمثّل لخاطري ما يكابده الأساتذة من العناء في تدريس هذه اللغة، بل ما نعانيه نحن الذين نزعم أنفسنا أدياء وشعراء من البرّح والجهد ولا أطيل، اشتريت الكتاب بثمن باهظ ثم انتحيت ركنًا في قهوة ورحت أقلّبه فإذا هو لا أكثر من ألفاظ ومحادثات باللغة الإنجليزية وما يقابلها باللغة العربية، فتحسّرت على ما بذلت فيه، وساءلت نفسي: ماذا أصنع به؟ كيف أعوِّض خسارتي؟

والله أكرم من أن يضيع على فقير مثلي ماله إذا صح أن تسمّي القروش مالا. فألهمني أن أنتزع منه متعة لا أظن مصرياً غيري حلّم بها أو طمع فيها. ذلك أني فرضت — جدلاً — أني (مالطيّ) واتخذت هذا الكتاب مرشدًا لي وقلت أتقيد بجملة وعباراته في المحادثات التي أضطر إليها في تجوالي في المدينة.

ولما كنت «سائحا» وشوارع المدينة متداخلة تضل الغريب فقد وجب — طبقًا لمشورة الكتاب — أن أركب «عربة» وأن أحتمل هذا الترف الضروري، ففتحت الصفحة الثانية عشرة حيث الحديث مع سائق العربة ودنوت من «الموقف» وأشرتُ بعضا اشتريتها خصيصًا لهذه المناسبة السعيدة، وصحت بلسان ملتو: «أرجي»، فألهب السائق جواده وعدا إليّ بهما، فلما صار عندي عدتُ إلى الكتاب أستوحيه الجملة الثانية التي ينبغي أن تتلو النداء، ثم رفعت إليه رأسي وقلت: «روه هات أربه».

فكأنني لطمت الرجل على وجهه. فانطلق يمطرني وابلاً من الكلام لم أفهمه كما هو المفروض؛ إذ كنت غريبًا عن هذه الديار، ولكني تبينت من لهجة الرجل وإشاراته أن المعاني جميلة جدًّا وأن جمлتي راقته كما لم يرقه شيء في حياته.

وعدت إلى الكتاب أستمليه الجملة الثالثة لعلها تحل الإشكال فقلت: «يا أربجي أنت فاضي؟»

فرماني بنظرة مغيظ محنق لم أدر ما مسوؤها، ثم رفع طرفه وكفّه إلى السماء، ثم صاح بالناس فالتفّ حولي منهم اثنان كلمني أحدهما بالفرنسية فهزرت له رأسي فخاطبني باليونانية، فظلتت أمز له رأسي، فجزّب الثاني الإيطالية فأشرت له بإصبعي أن لا. وخفت أن يطول الأمر فرددت عليه بالإنجليزية فاستغرب وجعل يرفعني ويخفضني بعينه. وأوجز فأقول إني حسماً للنزاع ركبت وقلت للسائق، بعد أن تجاوزت عن جملتين من الكتاب: «طيب اذهب بي إلى المهطة.»

فانطلقت العربية، وبديهي أنني كنت أوتر مكاناً آخر ولكنني كنت مقيداً بالكتاب، فلما انتهينا لم أنزل وصحت به، نقلًا عن مرشدي: «كم تريد أجرة لك؟» وكان ينبغي أن يقول — طبقاً للكتاب — واحد شلن. ولكنه طلب نصف ريال، فدهشت وبحثت في غلاف الكتاب عن تاريخ طبعه فألفيته ١٩٢٦، فقلت لنفسي لعل الأجور ارتفعت في هذا البلد بعد صدور الكتاب، وكان عليّ أن أناقشه كما يحتم الكتاب فقلت: «لا، هذا كثير.»

وكان ينبغي — على ما رسم الكتاب — أن يكون ردّه على ملاحظتي «كما في التعريف»، غير أنه بدلاً من أن يفعل ذلك مضى يشتمني ويسبني ويلعن لي آبائي وجدودي وهو آمن مطمئن إلى جهلي بلغته البذيئة على الأقل. فلم أرَ مناصاً من أن أعُدّ لعناته مرادفة للرد الواجب، ونقلت له من الكتاب «سته كروش أبيض بس.»

فحسبني بملء صحراء من اللعنات والشتائم ثم قال: «هات بقى.» ففهمت هات لأنها من الكتاب، وتجاوزت عن باقي «بقى» على اعتبار أنها على الأرجح كلمة شكر أو دعاء، وناولته القروش الستة البيضاء. وإذا به يثب على الأرض ويجذبني من جيب سترتي ويصب عليّ من السباب ما يكفي شعباً بأسره جيلاً كاملاً. فما أشد إسرافه قاتله الله. وتنازعني الضحك والغضب والخوف. ولكنني ضبطت عواطفني وصوبت عيني إلى الكتاب ثم رفعت له وجهي وقلت: «وديني الكشلة.»^١

فقال: «الكشلة؟ يا خبر أسود يا ناس. تعالوا انظروا هذا يريد أن يدعي أنني كسرتة...» وهكذا وهكذا مما يستطيع القارئ أن يتصوره ولا حاجة بنا إلى وصفه.

^١ الكشلة عامية ومعناها المستشفى، ولا تكاد تُذكر إلا مقرونة في الذهن باليأس من حياة المريض.

ولم أدّعِ أنا شيئاً من هذا، ولا خطر لي أن أفعل، ولكنه الكتاب استوجب مني أن أذهب إلى القشلة بعد أن حملني إلى المحطة، ولا موجب لهذا ولا ذاك، ولكن هكذا شاء فكان ما أراد، فرأيت الأحزم أن أنتقل إلى الجملة التي تلي «القشلة» فقلت: «طيب اعمل فسحة في البلد.»

فلم يدرِ أيّ شتم أم يضحك. وبعد أن تأملني قليلاً قال: «يا بن ... من القشلة للفسحة؟»

وبينما كان هو يصعد إلى مقعده كنت أنا أترجل. فالتفت إليّ مذهولاً، فأنقذته القروش العشرة وقلت له: «لا مؤاخذه لقد كنت أمزح.» فحار كيف يعتذر عن شتائه ولعناته ...

سأجرب فضل الكتاب في نزوة أخرى استخلاصاً لحقي.

أشقُّ المحادثات

محادثة الصُّم أشقُّ شيء بعد محادثة النساء. إذا صح أن الرجل يتحدث أو تُتاح له فرصة الكلام وهناك امرأة. والفرق بين الحالتين — أعني بين محادثة الصم ومحادثة النساء — أن المرء في الحالة الثانية لا يزال يفتح فمه، كلما توهم أن الحظ قد أسعفه بفرصة، ولكنه — فيما أعلم — لا يجاوز التأتأة أو الفأفأة أو غير هذه وتلك مما هو منهما بسبيل، ولا يكاد يزيد على «أ أ»، ثم لا يرى معدى عن إطباق فمه، وهكذا فلو أُتيح لك أن تراه وهو يفتح فمه ثم يطبقه مرة بعد أخرى — دون أن تعلم أن هناك امرأة تتحدر كالسيل — لظننته يتتأب من فرط الملل والوحدة، وشر ما في الأمر أن المرأة لا تنفك تنكر على الرجل صمته وتستهجنه منه أو تُعده دليلاً على أن في نفسه شيئاً من ناحيتها. وليس من الميسور أن يقول الرجل منا لأمه أو زوجته أو أخته أو لأية سيدة محترمة: إن علة صمته أنها هي لا تكفُّ عن الثرثرة. كلاً، هذا لا سبيل إليه فإن عاقبته أوخم، فهي ورطة كما ترى لا مخرج منها.

فرص الكلام معدومة أو هي في حكم المعدومة، والمصارحة مستحيلة والصبر على اللوم والتأنيب والالتهام عسير، فماذا يصنع المرء؟ توهمت مرة أنني اهتديت إلى تعليل للصمت المفروض عليّ والمستهجَن مني في وقت معاً. فقلت لمن كانت تلومني: «ألا تعلمين أنني مدرس؟»

قالت: «وما دخل هذا؟»

قلت: «إذا أكثرت من العمل بيدك ألا تتعبان؟»

قالت: «نعم ذلك...»

قلت: «وإذا مشيت بضعة أميال ألا تتعب رجلاك؟»

قالت: «هذا صحيح ولكن...»

قلت: «تمهلي، وإذا تعبت يدك أو رجلاك فكيف تريحينهما؟»

قالت: «بالكف عن العمل أو المشي.»

قلت: «انتهينا. أنا مدرس وليس لي من عمل طول النهار إلا إدارة لساني في حلقي،

فمن حق هذا اللسان أن يستريح بعد الجهد الشاق الذي بذله.»

فاقتنعت يومئذٍ، وبعد بضعة أيام كنت جالساً معها، صامتاً كما هو مفهوم بالبداية

فدنت مني وقالت: «اللسان يتعب، أليس كذلك؟»

فأدركتُ أن وراء هذا السؤال أمرًا، وقلت: «نعم. شأنه شأن كل عضو آخر.»

قالت: «فما لفلانة المعلمة لا تكفُّ عن الكلام في ليل أو نهار؟»

والخلاصة: أنني أشك في أن آدم هو الذي سمى الأشياء. وما أظن إلا أن حواء هي

التي يرجع إليها الفضل في ذلك، فما أحسبها تركت له فرصة يفتح فيها فمه ولا سيما

إذا ذكرنا أن آدم كان الإنسان الوحيد الذي كانت تستطيع أن تكلمه في الجنة، وأنه

لم يكن معها سواه فكيف استطاع أن يجد الوقت اللازم للتفكير فيما يناسب الحيوان

والنبات من الأسماء؟! بل ما أظن أن آدم قد أكل من الشجرة المحرمة؛ لأن حواء أغرته

أو لأن الشيطان وسعه أن يزين ذلك له، بل لأن الأكل من هذه الشجرة له عواقبه، ومنها

الموت وانتفاء الخلود، وتلك وسيلة للخلاص يمكن ارتقاؤها مع الصبر. فما أعظمها من

تضحية يجب أن نذكرها لأبينا الشيخ المسكين!

أما محادثة الصم فشيء آخر مختلف جدًّا، هي صياح من جانب وبعثرة من الجانب

الأخر، وأعني بعثرة المواضيع التي يمكن أن يدور عليها الحديث زمنًا معقولًا؛ إذ لا

سبيل إلى حصر الذهنين في موضوع واحد وقتله — أعني قتل الموضوع — ولنضرب

مثلاً: تضع يدك إلى جانب فمك وتصحح في أذن صاحبك: «متى اشتريت هذه النظارة؟»

فينظر إليك أولاً كأنما يريد أن يقرأ في عينك أو في وجهك كله ما سمع، ثم يقول

بصوت لا تكاد تسمعه ولعله يحسب أنه يصيح مثلك: «أي نعم وزارة المعارف.»

فتصحح مرة أخرى وتصنع من كلتا يديك بوقاً لأذنه. «النظارة. النظارة. أنا أسأل

عن النظارة.»

فيقول: «آه. ربما. ربما. فإن الأزمة حقيقة حادة.»

ويخطر لك أن تغير الحديث فتصب هذه الصيحة في أذنه أو تطلقها في الهواء،

سيان: «هل قرأت مقالتي الأخيرة؟»

أَشَقُّ المَحَادِثَاتِ

فيقول: «لعنة الله عليها لقد كادت تخنقني. وقد غشني من مدحها لي.»
فتبدي أمارات الدهشة وتلعنه بصوت عادي فيقول: «لا تعجب فإنها جهة مشبعة
بالرطوبة، والبعوض فيها كالنحل. كلاً. لقد شبعت من المنيرة وسأنتقل إلى جهة أخرى.»
وهكذا. تنتقل من موضوع إلى موضوع بلا فائدة حتى يبيح صوتك. والنساء شرٌّ
لا بد منه، وكثيراً ما تنسيك حلاوته مرارته ولكن المرأة الصماء ... هنا يحسن السكوت.

من ذكريات الصبا: بين رجال الليل

وقعتُ مرة على عصابة من اللصوص، وكنت في ذلك الوقت صبيًّا في الثالثة عشرة من عمري الذي أراه ينوي أن يطول بلا مسوِّغ، وكنت عائداً من مكان قريب من مسجد عمرو إلى الإمام عن طريق الصحراء الفاصلة بينهما، وكان الليل قد أمسى وانتشر الظلام على الأرض، ولم يكن شارع «كتشنر»^١ قد شقَّ وعُدِّد. فكان الساري لا يجد ما يهتدي به في هذه البيداء المبسطة سوى النجوم إذا كان ممن يستطيعون أن يميِّزوا بينها. وكنت أعرف من الكتب أن هناك «دُبَّين» واحد منهما أكبر من زميله، ولكني لم أوفق إلى رؤيتهما في هذا التيه السماوي إلا منذ عهد قريب، وكان شكي يومئذٍ في وجودهما عظيماً، ولكنه شكٌّ لم أكن أدعه يندُّ عن صدري إلى لساني ولاسيما إذا كان أحد من المدرسين حاضراً، تلك جرأة كنت قد تعلمتُ ضبطها وكتمانها بعد أن جرَّت عليَّ ما لا أزال — كلما تذكرت — أرى يدي ترتفع إلى خدي. وشَرَحُ ذلك أننا كنا نطالع كتاباً نسيْتُ اسمه، فمرت بنا هذه الجملة المشهورة: «إن المضطَّرَّ يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه» وأخذ المدرس يضرب الأمثال، فكبر في عيني هذا «المضطَّر» الذي يبلغ من مخاطرته ألا يركب إلا الصعب «ويتعمد ذلك» ولا يعبأ شيئاً بالأهوال التي يقذف بنفسه عليها، وأعجبتني هذه الشجاعة وملأت نفسي إجلالاً له، فاشتقت أن أراه وعانيت من إلحاح هذا الشوق أشدَّ البَرْح، فلم يكد المدرس يفرغ من الشرح — وكنت في شغل

^١ شارع ممهد من الإمام الليث قريئاً من «عين الصيرة» إلى مسجد عمرو، ويمر بمدينة الفسطاط التي كُشف عنها حديثاً.

عنه بتصور «المضطر» وتمثل «الصعب» الذي يُركب — حتى وثبتُ عن الدرج كالقذيفة وقلت بلا استئذان: «أفندي! أفندي!»

فتغاضى المدرس عن مخالفتي للأصول المرعية وقال لي وعلى فمه ابتسامة الراضي عن نفسه المطمئن إلى بلوغ غايته من الإيضاح والبيان: «نعم يا عبد القادر؟» فجازيته ابتساماً بابتسام ولم أكن أقل منه رضاً عن نفسي وفرحاً بالانفراد — دون بقية التلاميذ — بهذه الرغبة الملحة، واغتراباً بشجاعة النهوض بلا استئذان للإعراب عنها فقلت: «أين يعيش المضطر؟»

فتجهمَّ وجهه وانزوى ما بين عينيه وطلعتني أمارات الغضب حسبته دلائل حيرة، فأسفت لتقدمي بهذا السؤال وإحراجي إياه به أمام التلاميذ وقلت لنفسي: إن معلمنا هذا معذور إذا جهل مكان «المضطر» واستعصى عليه الجواب، وأنى له أن يعرف — وهو رجل عادي — ذلك «المضطر» الذي لا يبالي بالصعب ويأبى إلا أن يركبه؟ وانتهت من هذه المناجاة، التي يظهر أنها طالت أكثر مما ينبغي، على التلاميذ يدفعونني وعلى المدرس يصيح بي. «أقول لك تعال هنا، ألا تسمع؟»

فلم أدع الابتسام وذهبت إليه وأنا أقول لنفسي: «سيعاتبني الآن على تسرعى وعدم انتظاري انتهاء الدرس لأسأله على انفراد، وسيهمس في أذني عتابه فأهمس في أذنه اعتذاري وأنتظر.»

«ماذا تقول؟» بصوت عالٍ.

ولم يكن هذا ما توقعته فارتبكتُ، وحدثت نفسي أن هذا مأزق ظريف. أرجو أن أنقذ الرجل ويأبى هو إلا أن يغرق، ورفعت له وجهًا يستطيع أن يقرأ فيه إذا لم يكن أعمى، أني آسف وأنني مدرك خطئي وكان عليه أن يُخفص صوته قليلاً، ولكنه لم يحفل رجائي وتوسلي فصرخ مرة أخرى: «ماذا تقول؟ أجب.»

فالتفتُ إلى التلاميذ كالذي يريد أن يقول: أستمعون هذا المجنون؟ لستُ ملوماً إذن وأنتم شهودي. ولكنني لم أكد أرد وجهي إليه حتى خطر لي كوميض البرق أنه لعله لم يسمع سؤالي فهو يجهل مداه ومبلغ ما ينطوي عليه من الخطر على سمعته ومركزه بين التلاميذ. واستولى عليَّ هذا الخاطر فسرتني أن فرصة الإنقاذ لم تَضِعْ، فشبيتُ عن الأرض ورأيتُ يُمناي تمتد إلى كتفه لتدنو بأذنه إلى فمي، وإذا بي على الأرض أقيسُها إلى آخر الفصل دائراً حول نفسي ومتخذاً رأسي محوراً، وقعدت أبكي وبني من الغيظ والحقد أكثر مما بي من الألم، ولكن المدرس كان قد لحق بي فكتمت الغيظ ورفعت طبقة البكاء فجأة حتى صار إعوألاً، فجعل يصيح بي: «اخرس يا كلب اخرس. أقول لك اخرس.»

ويشفع كل كلمة بلطمة أو لكمة فأزداد إعوألاً.

ويظهر أن هذا الصخب نبه «الناظر» - وكانت غرفته قريبة منا - فدخل علينا ورأى المدرس متلبساً بجريمة الضرب - وهي محرمة - وكان الناظر رجلاً طيباً ساذجاً يخرج الكلام من أنفه أحنَّ أغنَّ ممطوطاً ليناً، وكان صديقاً لأبي - أعني قبل موته - وحديث عهد بالبكوية، وكانت لي عليه دالة بفضل تملقي «بكويته» لا بفضل صداقته لأبي، وكان التلاميذ يعرفون لي هذه الدالة فإذا أرادوا شيئاً بعثوا بي إليه. أوفدوني إليه مرة.

فقلت: «يا سعادة البك. نريد أن تأذن سعادتك لنا في الذهاب إلى حديقة الحيوانات.» فاعتدل في مقعده وهزَّ رأسه وهو يقول: «حونات. حونات إيه يا ابني. أسد فك السلاسل نهش عيِّل منكم نبقى نقول يا مين؟ يا ابني يا عبد القادر لا.»

فاقتنعت واقتنع التلاميذ بأن الذهاب إلى حديقة الحيوانات خطر ليس بعده خطر. ولا أذكر أنني دخلتها إلا بعد أن صرت مدرساً في المدرسة السعيدية الثانوية وعلى مقربة منها، وإلا بعد أن تحققت أن الأسود تُحبس في أقفاص ولا تُربط بالسلاسل - إن صح أنها كانت تُربط - كما كان الحال على عهد ناظرنا طيب القلب ...

وأعود إلى «المضطر» وقصتي معه فأقول بإيجاز: إن المدرس - على الرغم من اعتدائه عليّ وعلى القانون ممثلاً في شخصي المحطم المجرَّح - زعم أنني هممت بصفعه. يا للكذب! وأصرَّ على وجوب طردي من المدرسة. ولم تُجدِ دموعي ولا ما أقسمت من الأيمان على أنني لم أرتكب هذه الجريمة التي لم تخطر لي على بال قط، وأنني ما أردت إلا الاستفسار عن مكان «المضطر» لأراه، وشهد التلاميذ الملاحين أنني رفعت يدي إلى كتف المعلم، فأيقنت أنني ضائع لا محالة، ويئست فكففت عن البكاء، وقلت: «أتلقي هذا الظلم بما يستحقه من الاشمئزاز والاحتقار.» وجرتي الناظر معه إلى غرفته وشرع يسألني في هدوء وعطف فسردت عليه القصة على حقيقتها ورأيت فرصتي سانحة فاغتنمتها وأكثرت من «سعادة البك»، وأضفت من عندي كذبة صغيرة فزعمت أن المعلم شتم أبي، وأبي - كما يعلم سعادة البك الناظر - ميت. وفعل التملُّق والأكذوبة فعلهما الذي توقعت فنهض سعادة البك وقال لي بصوت خفيض: «اسمع يا ابني أطردك من باب تيجي من باب. فاهم؟»

قلت: «نعم يا سعادة البك»، فتركني وخرج وأسرَّ شيئاً إلى فراش بينما كنت أتوتَّب في الغرفة وأطوي يدي ورجلي في الهواء من فرط الفرح، ثم ناداني فخرجت وبعد قليل

حضر المدرس أيضًا فمضى بنا جميعًا إلى الباب الكبير — وكان هناك باب آخر — وقال: «يا عم محمد، افتح البوابة. اخرج من مدرستي. امش من هنا. مبسوط بقى يا عم الشيخ...؟» هذا للمدرس.

ولا يحتاج القارئ أن أقول له إنني درت ودخلت المدرسة من الباب الثاني، وإن المدرس وجدني جالسًا على درجي في اليوم التالي، ولكن القارئ قد ينقصه أن يعلم أن المدرس عاد إلى الشكوى فقال له الناظر: «وماذا عمل إذا كان هؤلاء الأولاد كالعفاريت ربما كان قد هبط إلى فناء المدرسة من فوق سطوح الجيران.»
والآن إلى اللصوص بعد هذا الاستطراد الطويل الذي دعُت إليه المناسبة العارضة، مناسبة الذكرى الأليمة.

لم أزل أغرس قدمي في الرمال وأقتلعتها — فما يُسمى المشي في هذه الصحراء مشيًا إلا على المجاز — حتى دنوت من عين الصيرة،^٢ فأبصرت أشباحًا على ضوء نار، وكان الليل دامسًا فلم أستطع أن أكون على يقين من مكان القوم، وخفتُ إن أنا مضيت في طريقي أن أقع عليهم وأنا لا أعرف أي ناس هم، وكنت أسمع أن هذه الرقعة الجذباء من الأرض مأوى اللصوص وعُش الفتاك، فقلت: أميل عن الطريق حتى أبلغ «عين الصيرة» فأنحدر إليها ثم أعود فأصعد على حذر ناشرًا أذني في الليل المحيط، مرهفًا سمعي كل صوت ونأمة عسى أن أفلت، فإذا تعذرت الإفلات عُدت فوسعت الدائرة. فما كاد رأسي يبلغ مستوى الطريق المشرف على «العين» إذا بالقوم تحت عيني.

فأسرعت ورددت رأسي وتواريت خلف الصخرة التي كانوا جالسين إليها من الناحية الأخرى. وجلست أفكر وقد شاع فيّ الرعب وكادت عيناى تخرجان. غير أنني لم ألبث أن سمعتهم يغنون ويتضاحكون فعاد إليّ بعض ما عَزَب من الطمأنينة، وتشجعت فدنوت من حرف الصخرة وجعلت أبرز من وجهي بقدر وأخفي بقدر، فألفيتهم على بضعة أمتار، نحو عشرة، منهم الضخم الهائل الأنحاء والطويل الهزيل والقصير والبدين، وكان أحدهم يغني والباقيون يصخبون حوله ويضحكون ويتندرون عليه ويُرْكَبونه بالذع أنواع المجون. ويظهر أن هذا استفزه وأحنقه فانتفض عن الأرض ومضى يلعنهم ويقذفهم بأقبح النعوت، فهموا به جميعًا ولكن رجلًا ضخماً من بينهم حسبته فيلاً صغيراً صدّهم وأهاب بهم أن «دعوه لي فإنه طعامي الليلة.»

^٢ عين متفجرة بماء أسود يستحم فيها مرضى الجلود.

فسرت رعدة خفيفة في بدني ومططت وجهي لعلني أرى ذيله وراءه. وتناول الرجل عصا غليظة تبلغ المترين أو قراب ذلك، وجعل يتوثب في الهواء ويلوح بها في كل ناحية ويهوي بها على الرءوس حتى إذا كاد يطيرها عن أكتافها أو يحطمها حرّك يده، فمرت العصا فوقهم تقطع الهواء وتقول «فووو»، والرجل يقول في أثناء ذلك كلاماً كهذا: «دعوه لي. إنه طعامي! ألا ترونني؟ انظروا إليّ ورأعوني إني أنا الذي يسمونه الموت الوحي والخراب العاجل! أمي العاصفة وأبي الزلزال وأختي الكوليرا انظروا إليّ ورأعوني. إني أفطر بقافلة وبرميل من البلح،^٢ وإذا مرضتُ كان حسبي ملاء سلة من الأفاعي. أفتتُ الصخر بنظرة وأخرس الرعد بصيحة. وسّعوا لي وسّعوا لي. الدماء شرابي وأنين القتلى موسيقياي. انظروا إليّ ورأعوني وعلقوا أنفاسكم فيني موشك أن أنطلق.»

فعلقتُ أنا أنفاسي وقد ملأ الرعب والإعجاب والسرور قلبي، الرعب مما سمعتُ ورأيتُ، والإعجاب بقوته وحقه، والسرور بما أنا موشك أن أراه بين المتنازلين، وحدثتُ نفسي أنني سأشهد منظرًا لن أنساه ما حييت، منظرًا ينطوي — من دواعي الإعجاب والإجلال — على أعظم وأهول مما ينطوي عليه ركوب ذلك «المضطر» للصعب من الأمور. ثم نهض الذي كان يغني وكانوا يسخرون منه، وفي يده «نبوته» لا كما نهض نحن أبناء آدم، بل كما يطير النسر عن الصخرة، وهوى على نبوته قائمًا على الأرض وهو معتمد عليه ببطنه وناشر يديه ورجليه في الفضاء طلبًا للاتزان، ثم وثب بين صيحات الإعجاب وانطلق يضرب في الهواء بنبوته كما صنع زميله، ويقول كلامًا كهذا: «احنوا ظهوركم لركوبي ولا تنظروا إليّ بعيونكم فتذهلوا، إني أحكُّ جلد رأسي بالبرق، وأنيم نفسي بالرعد، وأروّح على وجهي بالعواصف، وإذا ظمئتُ مصصتُ السحاب وإذا جعتُ سار القحط في ركابي. واتقوا أن تنظروا إليّ فتبّهتوا! إني أحجب الشمس بكفي وأقدُّ من القمر قطعة فينتهي الشهر، وأرتجُّ لتندك الجبال، احنوا الظهور لأبي الخوارق!»

فصارت روعي في فمي. ونهض الأول وزهبا يتوثبان ويضربان الهواء بنبوتيهما ويصرخان كالشيطان ويتسابان بأوجع الكلام حتى غلى الدم في رأسي أنا، وأيقنتُ أن الدماء ستكون أمامي بركة. ثم طير الأول عمامة الثاني بنبوته، فقلتُ قد صرنا إلى الجد الرائع فالتقطها الثاني بنبوته أيضًا، وضرب عمامة الأول فأطارها عن رأسه فوقعت

^٢ شراب يُسكر يصنعه من البلح.

قريباً مني، فجرى الأول في أثرها وتناولها وقال «لا بأس، دقة بدقة والبادي أظلم، ولكن هذا لن يكون آخر ما بيننا، فخير لك أن تكون على حذر وأن تجنب طريقي فأني لا أصفح ولا أرحم، وسيأتي اليوم الذي تكفّر فيه عن ذلك بدمك.»

فقال الثاني — أبو الخوارق — إنه مستعد لذلك اليوم، وإنه يُنذر الأول من الآن، فإنه لن يستريح ولن يهدأ له بال إلا إذا خاض برجليه في دمه، وأنه يدعه الآن إكراماً لأولاده الصغار. وهمّ كلاهما أن يذهب في طريق، وكانا لا يزالان يتقاذفان بالوعيد والشتائم، ولكن رجلاً قميء الجسم — بالقياس إلى هذين الفيلين — قفز وصاح بهما: «قفا لعنة الله عليكما من جبانين، وإلا أطعمتكما هذه العصا.»

ولم يكذب فقد جذب كلاهما بذراع قوية أطعمه التراب، ثم أوسعهما ركلاً برجليه حتى أشبعهما ترميحاً وضرباً، ولم تمض دقائق حتى انقلبا كلبين ذليلين عند قدميه. فدوى الفضاء بضحكات الجالسين وتهكماتهم، وعانيتُ الأمرين من كتمان الضحك.

وبدا لي أن قد آن أن أفكر في الرجوع والهروب من هذه الحيرة، ولكن أحد الذليلين — وأحسبه أبا الخوارق — قام ليغسل وجهه ويديه في العين فرآني، فوقف وصاح «هوا من هذا؟» ووثب الباكون فكانوا حولي في أسرع من لمح البصر، وقبل أن أفكر في جواب. وتصايحوا بي فقال الأول: ماذا تفعل هنا؟ قل وإلا أعرقناك في العين.

وقال الآخر: شدوا رجليه ومزّقوه!

وقال ثالث: لص بطربوش! ها ها! تعال نعلمك: هاتوا الفرشاة لندهن له وجهه باللون الأزرق السماوي من فرعه إلى قدمه.

فضحكوا جميعاً وقالوا: «فكرة بديعة» غير أن الرجل القميء الذي مرغ الفيلين في التراب صدّهم جميعاً وقال: إنه ليس إلا طفلاً؟ ارفعوا عنه أيديكم! ويميناً لأدفنن من يلمسه.

فوضع أحدهم الجردل وترك الفرشاة تهوي إلى الأرض وتتعفر بترابها، وقال المنقذ: تعال إلى النور لنرى ماذا جاء بك إلى هنا، اقعدي! كم لك هنا؟

قلت: «دقيقة واحدة.»

قال: «ما اسمك؟»

ولا أدري لماذا لم أقل اسمي، ولا لماذا أجري لساني بما جرى به، ولكن الذي أدريه أنني قلت بلهجة الجاد «أبو الخوارق.»

فانفجر القوم ضاحكين ما عدا سمي الذي استعرت منه هذه الكناية، ويظهر أن هذا راق منقذي. فقال: «هذا حسن، ولم أكن أنتظره من طفل مثلك..» ولكنك يا صاحبي كذبت عليّ حين قلت: «إنك هنا منذ دقيقة، فقل الحق ولا تخف فلن يصيبك سوء.» فأخبرته الحقيقة وتعمدت — وقد اطمأنت نفسي لهذا الوعد — أن ما سمعت ورأيت من الفحلين الجبانين اللذين مرَّعَمهما منقذي في التراب؛ لأن أحدهما هو الذي توعدني بالإغراق وثانيهما هو الذي أراد أن يدهنني. وهكذا انتقمتم لنفسي وأدخلت السرور على نفس منقذي، فرافقني إلى أول الطريق المأنوس ثم أطلقني فمضيت أعدو إلى البيت! وكان هذا أول عهدي «برجال الليل».

أبو الهول وتمثال مختار

رأيت تمثال «مختار» كما لم يره غيري. ولست أعني أنني دخلت في جوفه، أو صعدت إليه، وركبت أبا هوله، أو نظرت إليه بأربع عيون، ولكنما أعني أنني لم أكد أقف أمامه وأهمُّ بأن أرفع إليه عيني حتى أحسست طفيلياً إلى جانبي يتأبط ذراعي، كأنما كنت أعرفه قبل أن يُولد، ويقول لي: إن صانعه «مختار محمد مختار» ... فصرفت نظري عن التمثال وانصرفت إلى هذا الذي اختار أن يكون صديقي دفعة واحدة وآثرتني على غيري من الواقفين بصحبته وراقني الموقف جدًّا، وقلت له وأنا أفحصه بعيني وأبحث في وجهه عبثاً عن مخايل «النشالين»: سبحان الله! أضحك ما تقول؟!!

قال: وهل أنا أكذب عليك؟ سلَّ مَنْ شئت من الواقفين.

قلت وقد زاد اغتباطي بالموقف: أستغفر الله! فما أعرفك كذبت قبل اليوم.

وخطر لي أن أستخلص من هذا الموقف كل ما فيه من متعة فقلت: معذرة، ولكن

صاحبه عبد الغفار، هل ...

فقال بلهجة مَنْ يريد أن يدركني لينقذني: لا لا لا. مختار ... مختار محمد مختار.

— معذرة مرة أخرى — مختار — وهل هو صاحبه؟

قال: نعم.

فقلت: ومن أين اشتراه؟

قال: اشتراه! إنه هو الذي نحته.

قلت: وهل كان هنا جبلاً نحته منه؟

فضحك ملء شذقيه ثم قال: جبل؟ أي جبل؟ ألسنت من أهل القاهرة؟

قلت: كلاً إنني من الريف. وهذا أول يوم لي في القاهرة.

فزال عجبه ولم يسرني أن أراه يضحك مني أنا الذي يريد أن يضحك منه، غير أنه لم يسعني أن أترجع بعد أن ذهبت معه إلى هذا المدى، ورددت الحديث إلى مختار فسألته: وهل مختار هذا من قدماء المصريين؟ أقول هل — معذرة إذا كنت غلظت في اسمه مرة أخرى — ولكن هل هو — أعني صاحب التمثال — من قدماء المصريين؟ فافتراً فمُه عن ابتسامه عطف على كتلة الجهل المجسّد الذي كان يتأبطه واستل ذراعه، فحمدت الله ووقف أمامي يتألمني وقد شكّ في أمري على ما أظن، وتوقعت أنا أن انفجر بالضحك المكتوم فيحدث بيننا ما لا تُحمد — أو ما لا أُحمد أنا على الأقل — عقباه.

فأشرتُ إلى اسم التمثال المكتوب بالخط الكوفي على القاعدة وسألته: ما هذا؟

قال: ألا تستطيع أن تقرأ؟

قلت: أقرأ! وهل هذه كتابة؟

قال: نعم، وماذا كنت تظنها؟ إنها اسم التمثال، نهضة مصر.

قلت — وتجهمتُ له — اسمع يا صاحبي. لا يليق بك أن تغشني.

فراح يُقسم بالله أن الأمر كما يقول، وينطق الاسم وهو يشير إلى الحروف بإصبعه.

فقلت: وهل هذا خط عبد الغفار ... لا لا ... مختار. أليس كذلك؟ إن خطه قبيح جداً. إن

أبداً تلميذ في بلدتنا يكتب خيراً من هذا الخط ألف مرة.

وأحسبني حيرته وأدرت له رأسه بهذه الملاحظة فقد تلعثم، وسرّني جداً أن أشهد

ارتبأكه، وأقسمتُ لأمطرته وأبلاً من هذه المدهشات، فلم أمهله ريثما يفكر في جواب، بل

رمىته بسؤال آخر عن المصرية الواقعة إلى جانب أبي الهول: وهل تعرف هذه السيدة؟

فرفع رأسه بسرعة وقال بلهفة: نعم. لا. إنها من التمثال.

فقلت: شيء جميل والله! وهل هذه أول مرة تتقف فيها هذه السيدة هنا؟

فحملق في وجهي ولم يفهم وضاعت النكته، واحتجتُ إلى سؤال آخر فقلت: وهل

ستظل هذه السيدة واقفة هنا؟

ففتح الله عليه بهذا: يا أخي هذه ليست سيدة. إنها حجر. تمثال. ألا تفهم؟

فقلت: فهمت. فهمت ولكن أتظل هكذا؟ ألا تتعب؟

فقال — ودقَّ كفّاً بكفٍّ: كيف تتعب؟ ألم أقل لك إنها حجر؟

قلت: آه صحيح. وأي حيوان هذا الذي جانبها؟

قال: حيوان؟ هذا أبو الهول ينهض.

قلت: وهل كان راقداً قبل الآن؟

فخُيل إليّ أنه سيدعني ويجري، ولكني كنت واهماً فقد ثبت وكان أشجع وأجهد مما ظننته، وقال بصوت خفيض، وفي تَوَدّة: اسمع. ألم أقل لك: إن اسم التمثال نهضة مصر؟ أجبني.

قاطعته وأجبتّه أن نعم.

فقال: فهذا أبو الهول ينهض. يعني أن مصر تنهض. أفهمت الآن؟

قلت: بودي أن أكون فهمت حتى لا أتعبك. ولكن أين مصر هنا؟

قال: أبو الهول يا أخي.

قلت: ومَن هذه السيدة الواقفة بجانبه؟

قال: مصر.

قلت: هل هما مصران؟

قال: سبحان الله العظيم! لا يا أخي.

قلت: لا تَوَاخِذني. ولكنك أفهمتني أن أبا الهول هو مصر وأن السيدة هي مصر،

وقد تعلمت أن واحداً وواحداً اثنان.

قال: لا لا. إن هذا ليس حساباً. إن هذه مصر تُنْهَضُ أبا الهول. قلت: أليس معنى

ذلك أن مصر تُنْهَضُ مصرًا؟

قال: لقد بدأت تفهم. هذا هو المعنى.

قلت: ولكني — ولا مؤاخِذة — لم أفهم.

قال — وهو مغيب — كيف لم تفهم؟

وبدا لي أن في حديثنا من الجد أكثر من المقدار الذي يحتمله هو، فعدتُ إلى التَّبالُهِ

وسألته: ولكني لا أرى الهرم هنا فهل نقله مختار؟

قال: نقله كيف؟ أين أنت من الهرم؟

قلت: هكذا قرأت في الكتب أن الهرم إلى جانبه أبو الهول فأين ذهب الهرم؟

ويظهر أن نقل الهرم كان أكثر مما يطيق. فلَوَّح بيده في وجهي، وتمتم شيئاً

لم أفهمه؛ لأنني شُغِلت بنظارتني التي هوت إلى الأرض وتكسرت عدستها وأولاني ظهره

ومضى.

بعد هذا الحديث الذي استطبته والذي شغلني عن التمثال وعن الوقوف به أتدبره

كما ينبغي، مضيت إلى أهرام الفراعنة، فلما سرتُ عند أبي الهول وددت لو أن صاحبنا

معي. إذن لسألته مَنْ صنع هذا؟ أهو مختار أيضاً؟

وتخيلته وهو يهز كتفيه أمامي — تحت أنفي — ويقول: لا يا أخي. الفراعنة.

فأعود أسأله: وهل هم أحياء؟

فيستعيز بالله من هذا الجهل المطبق ويقول: أحياء كيف؟ لقد ماتوا منذ آلاف من

السنين.

فأبدي له العجب من أن يكونوا أمواتًا كل هذه الآلاف من السنين أسأله: وبأي شيء

ماتوا؟

فيقول: لا أدري. لا يدري أحد.

فأكر عليه بقولي: أتظن أنهم ماتوا بالطاعون؟

فيقول: لا أدري. ربما. من يدري؟

فألح عليه وأقول: أترجح أنهم ماتوا بالكوليرا؟

فيقول بلهجة السأمان: ربما، ربما، قلت لك لا أدري.

فلا أدعه ولا أرحمه وأقول: أو لعلهم ماتوا حسرة؟

فيقول، وقد انتفخت مساحره من فرط الضجر: ربما، قلت لك ألف مرة لا أدري،

ماتوا والسلام.

فأزداد عليه شدة وأسأله: وأبناء الفراعنة ألا يزالون أحياء؟

فينقذني بلفظة «مستحيل» ويعض حروفها بأسنانه، فلا يردعني هذا وأسأله عن

أبي الهول وأين القاعدة وأين أبو الهول؟

فيعود إلى كفيه يدق إحدهما بالأخرى، وبعد أن يقضي مأربه ويرفّه عن نفسه

يبينهما لي فأقول: «ما أوقره، وأشد سكونه! وهل هو ... هل هو ميت؟»

فيهيج برهة ثم يبيّن لي أنه حجر، أو لا يستطيع معي صبرًا فيلوح بذراعه ويمضي

عني.

كلًا، تمثال مختار — «محمود» مختار — على براعته لا شيء حين يقيسه المرء إلى

أبي الهول الفرعوني، فإنه على هذا الوجه من الكآبة والجد والتشوف والصبر والجلال

والنبل، ما ليس له شبهة في وجه الإنسان، وهو حجر ولكنه فيما يبدو للعين يفكر، ينظر

إلى الدنيا حوله ولكن نظرته تتخطاها إلى الفراغ الذي يلفها في طياته، وتتطلع إليه

فيخيل إليك أنه يرد عينه إلى الماضي متجاوزًا محيط الزمن وأمواج أجياله وقرونه، أو

متراجعًا بها ومطبقًا بعضها على بعض، حتى تعود وقد امتزجت وأضت مدًا واحدًا عند

أفق القدم، نعم يفكر أبو الهول هذا في الحروب التي دارت أرحاؤها في الأزمنة الغابرة، وفي الدول التي شهد قيامها وسقوطها، وفي الأجيال التي رأى مولدها وراقب نهضتها ولاحظ فناءها، وفي المسرات والأحزان والحياة والموت والرفعة والذلة التي دارت بها أربعة آلاف من السنين البطاء.

ودع ما أرادوا أن يرمزوا له به، إن كانوا قد قصدوا إلى شيء من ذلك، فما أراه أنا إلا تجسيداً لتلك الملكة الإنسانية التي يسمونها «الذاكرة» في صورة بارزة محسوسة، وما من أحد عرف أي شعور تحرّكه في النفس ذكرى الأيام السوالف، وماذا ترسم على الوجه، إلا وهو يستطيع أن يقرأ ذلك كله في هاتين العينين اللتين يديرهما أبو الهول فيما عرفه وشهده قبل أن يُولد التاريخ.

وهو لا يقيس الزمن بالسنين، فإنها هُنَيْهَات، ولا بالأجيال فإنها لحظات، وإنما يقيسه بالدول التي قامت ثم تقوّضت تحت عينه التي لا تتعب ولا تشعب من النظر، ذلك أن فيه معنى من معاني الخلود، فقد رأى منف وطيبة وشاهد مجدهما، وعاش ليُبصر الخراب يُعْفَى عليهما ويوكّل بهما البوم والوطاويط، ورأى أبناء إسرائيل يقومون ثم يُسحقون، والأعارقة ينهضون ثم يموتون، ورومية تُشاد ويرتمي ظلها على الأرض ثم تفنى، والعرب يستفيضون في الدنيا أسرع من العاصفة ثم يذهبون في سبيل مَنْ غُبر. وكما أخذت عينه عظام مئات من الدولت كذلك ستأخذ قبور مئات أخرى قبل أن يفتّر لحظها وتطبق الجفون.

والمرء ينظر إلى أبي الهول الساهد ويفكر في آلاف السنين التي قضاها هنا على حافة الصحراء، فلا يستغرب ولا يخالجه شيء من الشعور بالتنافي بين هذه الدهور الطويلة وبين مقامه هذا، وذلك أن ربضته تشيع في النفس معنى الاستقرار التام. وقد أحسن القدماء بإيثار الربوض له، فإنه جلسة مريحة تقترن في الذهن بمعنى الاستمرار، وليس كذلك «النهوض» كما هو مصور في تمثال مختار، والمرء خليق حين يعود إليه مرة بعد أخرى أن يحس أن لهذا الوضع ما بعده، إما أن يثب إلى الأرض، وإما أن يعود إلى الجثوم والراحة والسهوم مرة أخرى، أما البقاء هكذا يوماً بعد يوم. وشهراً في إثر شهر، وعاماً في عقب عام، فليس من السهل على العقل أن يأنس إليه ويقتنع به، وقد تكون هذه مزية للتمثال، وعسى أن يكون المقصود بها أنها نبوءة أو أمل أو نحو ذلك. ولست أعيب أو أنقد، فما أعني أكثر من أنني حين أنظر إلى التمثال لا أحس أنني قد رأيت كل شيء، وقد أتوهم أنه سيثب عن القاعدة إلى الأرض.

وهذا الذي عليه أبو الهول الجديد إقعاء لا نهوض، فإن الحيوان — من البعير إلى الهرة — حين يريد أن ينهض، يقوم على رجليه الخلفيتين أولاً ثم الأماميتين، أما القيام على رجليه الأماميتين فحسب، فهذا هو الإقعاء، وهو جلسة للحيوان يتخذها أحياناً، وأكثر ما يراه الإنسان في الكلاب، حين تقعد ناشرة أذانها راصدة عيونها، وأحسب أن مختاراً إنما أثر هذا الوضع؛ لأن منظر أبي الهول يكون غريباً ثقيلًا إذا أنهضته على رجليه الخلفيتين، كما ينبغي أن يفعل إذا كان يقصد إلى النهوض، ولعل عذر مختار أن أبا الهول هذا خليط من الإنس والحيوان فله أن ينهض كيف يشاء حتى على رأسه.

وهذه الفتاة المنصوبة إلى جانب أبي الهول لا أفهم معناها ولا أدري لماذا يقيمها المثال هناك ويضئها بهذه الوقفة المتعبة؟ ولو كنت أنا مختاراً لاستغنيت عنها جملة ولاجتزأت بأبي الهول وحده؛ لأنه إذا كان المراد الرمز إلى أن مصر تنهض، فإن أبا الهول بمفرده حسب من شاء أن يرمز إلى ذلك. ولن يركب الجهل أحداً فيتهم أن المراد به رومية أو قرطاجنة، ففي نهوضه وحده ما يكفي رمزاً لنهوض البلاد التي اقترن اسمه بتاريخها. زد على ذلك أن قيام الفتاة إلى جانبه تخليط؛ وذلك أنها — على ما فهمت — رمزٌ لمصر الحديثة. وعلى هذا يكون أبو الهول عنواناً على مصر القديمة، وكان المعنى — على هذا — أن مصر الحديثة توقظ مصر القديمة، أو أن مصر القديمة تنهض إلى جانب الحديثة وفي كنفها، وكلا المعنيين مستحيل يرفضه العقل ولا يسبغ معناه، وأصح من ذلك أن هناك — أو هنا على الأصح — مصرًا واحدة تاريخها سلسلة متصلة الحلقات، وأنها كانت نائمة أو متفترّة أو ما شئت غير ذلك، ثم هي الآن تستيقظ أو تنفض عنها غبار القرون وتهم بالنهوض، وهو معنى لا يحتاج إلى هذه الفتاة التي تفسده ولا تؤيده. ولست أستريح إلى وقفة الفتاة فإنها كالعصا، ويُمناها التي على رأس أبي الهول غريبة في وضعها؛ فإنها لا يسندها في الحقيقة إذا تأملتها إلا أصابعها، أما ذراعها فكالمعلق في الهواء إن كانت الشملة — أو لا أدري ماذا هي — تحجب هذا التعليق عن عين الناظر، وهي لا تفعل بيُمناها هذه أكثر من هذا الاستناد بأطراف الأصابع دون باطن الراح، ولا أدري لماذا جعلها كذلك ولم يدعها تريح ذراعها؟ ثم ما معنى هذا الوضع؟ وما الذي قصد به إليه؟ أترأه أراد الإيقاظ؟ فهذه ليست حركة إيقاظ، وليس في وجه الفتاة أدنى التفات إلى الذي بجانبها إن صح أنها تريد أن توقظه. أم ترى المراد أن مصر الجديدة تحسّر عن وجهها وتبرز للعالم معتمدة على مصر القديمة، فإن كان هذا هو المقصود وأحرى به أن يكون؛ فإن رمز النهوض واليقظة هو الفتاة لا أبو الهول،

ولا داعيَ إذن لإقامة أبي الهول على رجليه ما دام أن الناهضة سواه، وأنه ليس إلا تُكأةً
ووسيلة للرمز إلى الاتصال بالماضي، وحينئذٍ يكون المعنى أتم وأقوم بأن يظل أبو الهول
هذا رابضاً على العهد به والفتاة حاسرة على جانبه.

والخلاصة أن التمثال كان حقيقاً أن يكون أوفى بالغرض فيما أرى لو أن أبا الهول
ظل رابضاً إلى جانب الفتاة المعتمدة عليه؛ إشارة إلى اتكاء مصر الحديثة على ماضيها
واعترازها به واستيحائها إياه، أو لو أن التمثال خلا من الفتاة. والأولى عندي أفضل؛
اجتناباً للإقعاء، وتفادياً من الوقوع في هذا الغلط. أما التمثال في شكله الحالي فلا أكتم
القرأ أنني أحس كأنني أحمله وقاعدته على ظهري. ولا يسوء مختاراً قولي هذا فإنه يعلم
أني من أجهل الناس بالفنون، وأن ليس لي من الوسائل المعينة على حسن التقدير سوى
رأس واحد وعينين اثنتين ليس إلا.

الحب الأول

كنت صغيراً لم أدخل — بعدُ — في حدود الشباب، وكان الوقت صيفاً، وأكثر ما أقضي النهار أمام البيت أَلعب الصبية من لِدَاتِي، فمرة نكون قطاراً بخارياً مؤلفاً من بضعة عشرة قاطرة — ليس بينها مركبة واحدة — ننفخ جميعاً ونقول: «أومف أومف بفو بفو» وأخرى نكون خيلاً تسهل وتتوثب وتضرب الأرض بحوافرها وتزعج المارة وتصطم بهم، وطوراً نتقاذف بالكرة ونحطّم بها زجاج النوافذ فيثور السكان ويجلوننا عن الحارة، وتارة نقسّم أنفسنا فريقين: عصابة من اللصوص وضباطاً، وأحياناً نعصب لواحد منا عينيه ونتوارى عنه وينطلق هو وراءنا باحثاً، فَمَن لقي منا عصبنا له عينيه بدلاً منه، وهكذا إلى آخر هذه الألعاب الصببية إن كان لها آخر يُعرف أو حدٌ تقف عنده ولا تعدوه.

وكنت أنا — بفضل الله — أحمقهم جميعاً وأشرسهم خُلُقاً وأسرعهم إلى الشجار، وكنت إذا ضاربني أحد لا أبالي أين وقعت يدي، ولا أتقي أن أُصيب عينه أو أنفه أو أسنانه، وقد أتناول الحفنة من التراب وأعفّر به وجهه وأرده كالأعمى، ثم أنهال عليه لطمًا ولكمًا وركلاً. فقد كنت واسع الحيلة كما ترى، فعوّضني ذلك من ضعفي، وصارت لي بفضلها منزلة بين هؤلاء الصبيان. وكانت لي جارة — فتاة صغيرة كالنرجسة في مثل سني — وكنت أكثر ما أراها مطلة من النافذة علينا أو واقفة إلى بابها تنظر إلينا ولا تشترك معنا، ولا أستطيع أن أصفها، فقد بهتت صورتها بعد كل هذه السنين الطويلة، وإن كنت لا أزال أرى لها نوطة في القلب وعَلوقًا بالفؤاد كلما كَرّت بي الذاكرة إلى تلك الأيام، وكانت لا تفتأ تُنكر مني طيشي ومغامراتي. رأنتني مرة مقبلاً على البيت بعد الغروب بقليل، وعلى جلبابي الأبيض طوائف شتى من الأحوال فاستوقفتني وسألتني: «ما هذا؟ ماذا أصابك؟»

قلت: اعترضتني حفرة واسعة فأردت أن أعبرها وثبًا فقصر الوثب عن الغاية، فكان ما ترين.

قالت: لو فكرتَ قبل أن تثب لعلمت أنك لا تستطيع أن تعبر الحفرة.
قلت: ولكني عبرتها.

قالت: كلا! لم تعبرها بل وقعت فيها، وهذه ثيابك تشهد عليك.

قلت: ولكني اجتزتها والسلام. ألا ترينني أمامك؟

قالت: عنيد ولا خير في الكلام معك.

وتركتني.

واتفق بعد شهر من ذلك أن لقيتها عائدة إلى بيتها وكنا على مسافة مائتي متر منه، فلما صرنا في «الحارة» إذا هي زلوقة لا تثبت فيها القدم من كثرة الماء المرشوش، ولم يكن ثم طريق آخر، فأسندتُ يدها على الحائط وناولتني يدها الأخرى، وقلما كنت ألس يدها. فلما صارت كُفُّها في كفي شعرت بشيء من الزهو ممزوج بالغبطة، وخفت على يدها اللينة البضة أن تؤذيها قبضتي — التي خُيل إلي أنها قوية — فجعلتُ أصابعي حول رسغها حيث العظام فيما بدا لي أقوى على الاحتمال، وجعلتُ أخطو بحذر مخافة أن يطير إلى ثوبها النظيف رشاش من الماء القذر، وكانت مضطرة أن تعتمد عليّ بجسمها، وتلك أول مرة دنت مني أو دنوت منها إلى هذا الحد، وكان شعرها محلولاً ومرسلاً من فوق كتفها على صدرها، فجعلتُ أدني أنفي منه وأشمه، ولم يكن معطرًا ولكني كنت أجد له ريحًا طيبة، فلحظتُ ذلك مني وسألتني وقد جذبت يدها قليلاً: «ما هذا الذي تفعله؟»

قلت: إنني أشمك.

قالت: تشمني! إنك أوقح من رأيت من غلمان حارتنا.

قلت: لست أقصد أن أكون وقحًا، ولكن لشعرك رائحة طيبة فهل من بأس أن أشمه؟

قالت: كلا، لا تفعل.

قلت: لقد فعلت وانتهى الأمر.

وبعد قليل قلت: «هل تعلمين أن على وجهك وشعرك سبعة، ثمانية نجوم؟»

فابتسمت ولم ترد، فقلت ومددت إصبعي وأشرت به: «حقيقة. نجمان على شعرك،

هنا وهنا، ونجم على جبينك هنا — ثلاثة — ونجم في كل عين — خمسة — ونجم على

طرف أنفك — ستة — واثنان على فمك هنا وهنا — ثمانية نجوم — ليت معك مرآة!
إذن لأريتك!»

فضحكت، وكنا قد صرنا على الأرض الناشفة فعُدنا إلى وسط الطريق وسرنا، ولكن يدها بقيت في يدي، حتى بلغنا بيتها فشكرتني ودخلت.

ومنذ ذلك اليوم صار لهذه الفتاة تأثير في نفسي، لا أعرف له مشبهًا، ولم يخطر لي قط أنه راجع إلى أية عاطفة خارجة عن حياتي العادية، فكنت كلما رأيتها أشعر بشيء من الدهشة ويعاودني الحنين إلى شمها، أعني شَمَّ شعرها.

ولقد عرفتُ بعد ذلك فتيات كثيرات أجمل منها أو أفتن، ولكن أخطأت فيهن جميعًا ذلك العبق الذي كانت تستريح إليه حواسي، والذي كان يفتّر له جسمي، كانت تغيب عني أسبوعًا وأسبوعين فأنساها، وإن كنت أحيانًا أرى صورتها ماثلة في ذهني وفي أحلامي، وصرت أحب أن أراها وهي لا تراني؛ لأنو إليها مطمئنًا وأرى شفيتها الدقيقتين تفتّران عن ابتسامة خفيفة، وأشتاق أن أساعدها وأحميها كما ساعدتها يوم تخطيت بها تلك الأرض المبللة، وأن أسمعها تشكرني كما شكرتني يومئذٍ.

وقلّتُ على الأيام ملاعبتي للصبيان، وكثرت وقفاتي معها على بابها، ثم غابت أسابيع في قرية فيها بعض أقاربها، فشعرتُ بوحشة لا عهد لي بمثلها، وثقلت الحياة على كاهل صبري، فذهبت أنا أيضًا إلى أقاربي وقضيت عندهم شهرًا كان من أطيب ما مر بي وأحلى وأندى. ثم عُدتُ ولقيتها مساء يوم على باب دارها كعادتها، وكانت مطرقة وفي يمانها عود من ثمر الحناء تقطع ببسراها أكمامه التي لم تنور، وتفركها بأصابعها وتدعها تسقط على الأرض، فدنوت منها وهي لا تحسني ووقفت برهة، ثم قلتُ بصوت خفيض مرتعش: «فيم تفكرين؟»

فلم ترفع عينها ولم تولني نظرة واحدة، وقالت وهي مطرقة وأصابعها لا تزال تعبت بما في يدها: «فيم أفكر؟ في مثل هذا، في النور الأصفر تحت أكمامه الخضر، في سحاب التراب على الطريق، في الأغيصان الصغيرة الخضراء النابتة على فروع الشجر، في الأطيّار تلتقط القش وخيوط الصوف التي ألقيها لها لتحملها بمناقيرها وتصنع منها أعشاشها، في ألوان الفجر على الأشجار والحقول الندية الملتمة، في الأمساء الصافية الحالية بالنجوم المرتعشة في الغدران يتقرق فيها الماء حول قدمي المدلاتين.» ثم رفعتُ وجهها إليّ وقالت: «في هذا أفكر.»

وكانت تتكلم بصوت متئدٍ متزن النبرات كأنما تُحدِّث نفسها فدهشت، لا بل بُهتٌ، ووقفت صامتًا كأنما أَسْتَلُّ لساني من حلقي، وظللنا كذلك لا أدري كم، ثم قالت: «والآن سأدخل.»

ولكنها كانت بالذي يهم بالدخول أشبه، فوجد لساني الكلام وقلت: «لا تذهبي هكذا بغير تحية أو سلام.»

فوقفت مكانها وأمالت ووضعت يدها في خصرها كأن هنا شيئًا يؤلمها فدنوت منها فإذا بلمعة عينها تنطفئ ووميضها يخبو، فقلت: «ماذا كنت تقولين؟» فلم تجبني ومدت يدها إليَّ بثمر الحناء فقلت: «هذا حسن. تحية طيبة. سأذكرك بها دائمًا. والآن ماذا كنت تقولين؟ أتم شيء يحزنك؟»

قالت: «أي شيء يحزنني؟ لا شيء.»

قلت: «إني أرى هذا في عينيك، في وميضهما ثم انطفأ هذا اللمعان.»

قالت وعلى ثغرها الدقيق طيف ابتسامة: «ماذا ترى في عيني؟»

قلت، وكأني ألهمتُ الألفاظ: «أرى كأنك كنت تنتظرين شيئًا ثم لم يحدث.»

فقالت: «فقط؟ لا أكثر؟»

قلت: «فقط. وأريد أن أعرف ما هو؟ ولماذا؟»

فأطلقت ضحكة صغيرة فضية النبرات، وبدا عليها شيء من السرور وفتحت ذراعيها وقالت: «كلًا، لعل قلبي أطل من عيني هنيهة كما يطل الطفل من النافذة ثم عاد إلى مكانه ...»

فابتسمت وقد زدت بها إعجابًا وقلت: «وماذا أراد قلبك أن يرى من نافذة عينيك؟»

قالت: «ألا تطل أحيانًا من النافذة فتبصر طفلًا يعدو وهو مسرور؟»

قلت: «نعم.»

قالت: «كذلك القلب أحيانًا يجري أمام العين فرحًا مسرورًا، أظن قلبي فعل ذلك

حين رأيت عيني تلمعان.»

ثم بعد ثانية أو اثنتين: «والآن دعني أدخل، إن معك هذه الزهرة فاحفظها.»

ومضت عني وتركتني واقفًا كالأبله لا أكاد أفقه من كل ما قالت شيئًا وإن كنت قد

وعيته كما لم أع في حياتي شيئًا غيره.

ومر عام وكنا قد انتقلنا إلى بيت آخر، فمررت بدارها يومًا بعد الغروب، كان الباب

مواربًا فرأيتها تسقي أوصص الزهر في فناء البيت، فوقفْتُ أتأملها لحظة وهي تُقبِّل الورد

والأزاهير بعد سقيها ورشها، ثم دخلت في رفق وهمستُ باسمها فلم تسمع، فأعدتُ
الهمس فانتهبت كالمذعورة، وقالت: «إبراهيم؟» وكررت ذلك.

فاقتربتُ منها وقلت: «نعم هل أفزعتك؟»

ووقفت. شفتاها مفترقتان، ووجهها تصبغه الحمرة من أثر المفاجأة. ولم أكن
أعرف ماذا ساقني إليها سوى أنني اشتقتُ أن أراها وأن أفم معها لحظة أحداثها،
وقالت: «لقد كان يجب أن أفزع، فما سمعتك تدخل، لكن من الغريب أنك خطرت ببالي
وأنا أسقي هذه الأوصص.»

فكدتُ أصيح لا أدري لماذا، وقلت: «أصحيح هذا؟ إنه يسرني.»

فقال: «لم أكن أفكر فيك تفكيراً يسرك (وضحكت) لقد كنت ساخطة عليك.»

فضحكت مثلها وقلت: «ماذا جنى هذا الشقي يا تُرى؟»

فقال: «لست ساخطة لأنك فعلت شيئاً، لقد كنا عندكم أنا ووالدتي وأختي وقضينا
النهار كله تقريباً، وأنت لا أثر لك في البيت، ولا يدري أحد أين ذهبت، وفي وسعك أن
تتصور مللي بين السيدات العجائز.»

فضحكت مرة أخرى وقلت: «إني أفضل أن ألقاك هنا ويسرني أن أجدك وحدك.»

قالت: «وهل كنت واثقاً أنك ستلقاني هنا؟»

قلت: «كلّاً.»

قالت: «إذن لماذا جئت الآن؟»

قلت: «لا أعلم، اشتقت أن أراك لا أدري لماذا، فجئت.»

ولم أكن أكذب، فما كنت أستطيع أن أعْلل الشعور الذي يدفعني إليها، ولا جرى
ببالي أن أعْلله ولكني بهذا التصريح وبالسكون الذي تلاه، شعرتُ أنني دنوت خطوة من
الحقيقة المجهولة، أو هكذا يُخيل إليّ الآن، وانعقد لساني فسكت وأعديتُها فسكتت مثلي،
وأحسنا كلانا — فيما نظن — كأن هناك شيئاً جديداً يخفق به الجو، شيئاً لا يناله
إدراك ولا يرقى إليه العقل، غير محسوس كالطيب يحمله النسيم.

ومر بخديها طيف من الحمرة ما جاء حتى ذهب ففتحت عليها عيني وأتأرتُها
النظر، فتراجعت خطوة وهي تقول: «ينبغي أن أدخل.» فوقفتُ أرمقها وهي تدور
لتمضي عني، ثم كأنما انشق عني سور فاندفعت إليها ووقفت إلى جانبها، وجعلت أدير
لساني في حلقي بلا كلام وقلبي يخفق وتناولت يدها وذهبت بها إلى الباب حيث ظللنا
برهة صامتَيْن، ثم صاحت: «يدي. يدي ستحطمها.»

فانتبهت وأطلقت كَفَّها وأسِفَت، فقالت بصوت عذب: «دعني أدخل بالله.»
فتناولت يدها مرة أخرى وعدتُ أطلب أن تغفر لي إيذائي يدها، وقلت: إني لا
أستطيع أن أعود إذا لم تقل لي إنها ليست حانقة عليّ. وكنت أحس أصابعها تتحرك في
كفي فقالت: «كيف أحقن؟ لقد نسيت. دعني أدخل.»

قلت: «وأعود مرة أخرى لأراك؟»

قالت: «نعم.»

قلت: «ولا تعجلين بالدخول؟»

قالت: «كلّأ، دعني الآن.»

ولكني لم أعد لا اليوم التالي ولا الأسبوع التالي ولا الشهر التالي لسبب طبيعي جدًّا
هو أنني لم أكد أسير إلى آخر الطريق حتى برز لي شاب من الظلام وصاح بي: «ماذا كنت
تفعل هناك؟»

قلت: «أين؟»

قال: «هناك»، وأومأ برأسه وبإبهامه إلى بيتها.

قلت: «كنت أزورهم.»

قال: «تزورهم؟ هيه؟ تزورهم سأعلمك أن تزورهم مرة أخرى.»

ودفعني في صدري فانطرحتُ على الأرض، وقيمتُ ألعنه وأسبه، وأقبل عليّ ودق رأسي
بجميع يده فهويت إلى الأرض على ركبتي، وركلني برجله، وذهب وهو يتوعدني إذا فكرت
في العودة إلى هذا الطريق.

ولم أكن أعرف هذا الوحش ولا وقعت عيني عليه من قبل، ولم أفهم — إلى هذه
الساعة — سرّ هذا العدوان. فرجعت إلى البيت بصدر موجه ورأس يكاد يكون مهشماً
وعظام مرضوضة.

ولزمتُ الفراش أيامًا وخفت بعدها أن أرجع، ثم صرتُ أستحي أن ألقاها مخافة
أن تسألني عن سر غيبيتي، أو أن تكون قد علمت به.

وبعد شهور عدتُ من المدرسة يومًا فإذا هي ووالدتها في بيتنا ففرحت وخجلت، ولما
سلمت كانت يدي ترتجف، وعيني إلى الأرض، وذهبت إلى غرفتي فأدركتني في الصلاة
وقالت: «خذ»، وناولتني عودًا من ثمر الحناء فأخذته في صمت وأدنيته من أنفي، ووقفت
أشمه وأشمه وقد غاض معين الكلام وانقطع عني مدده. فلما رأَت صمتي وارتباكِي
قالت: «سنذهب إلى الريف.»

فأنطقتني هذه المباغثة وقلت: ستذهبين؟ وكم تظلين هناك؟

قالت: «عامًا. أتستكثر ذلك؟»

قلت: «بالطبع، إني آسف جدًا.»

قالت: «ولكنك لا تزال تهرب مني.»

فأغضيت عن هذه الملاحظة، وسألتها: «وماذا تنوين أن تصنعي هناك هذا العام؟»

قالت: «يا له من سؤال! وكيف يعينك أن تعرف؟»

وضحكتُ فجلت ضحكتها صدري وفتت مخاوفي ونظرتُ إليها معجبًا، وأحسست بالدم يتدفق في عروقي، وبأنفاسي تسرع، وحمل إليّ النسيم الواني طيبَ شعرها فمددتُ يدي إلى كفِّها، وكانت شفاتها مفترقتين وعيناها في عيني، وصدرها يكاد يلمسني، فألفيت نفسي أنحني عليها وألمس شفتيها بلمي، فصار وجهها كالجمرة، ولكنها لم تتحرك ولا تكلمت، ودار رأسي كالمخمور فتقهقرت خطوة، وهي واقفة كالتمثال، وما أظنها كانت تتنفس أو تفكر، فما رأيت صدرها يتحرك أو أجفانها تحتلج: كلاً لا شيء إلا هذا الجمر في خديها ينبئ أنها حية.

وأفاقت ثم أصعدت زفرة كأنما كنت لطمتها ولم أقبلها، ثم هتفت بي، فأسرعت وأخذت يديها في كفي، ثم رفعتهما وقبلتهما وقلتُ لها: «أغاضبة أنت؟ قولي إنك لست غاضبة.»

فأجابتني بهيئة خفيفة لرأسها، فقلت: «لست غاضبة. أعلم ذلك، وإلا فما قبَّلتك، تكلمي.»

فقالت همسًا: «دعني أذهب إني خائفة.»

فقلت: «إنك جميلة. جميلة»، وانهلث على يديها مرة أخرى ألثمهما ظهرًا وبطنًا ثم سحبت يديها ببطء، ووضعتهما على صدرها وقالت وهي تتلعثم وترتجف: «قل لي ما هذا؟»

قلت، ووضعتُ يدي على يديها فوق صدرها: «هذا! ألا تعلمين؟ إنه الحب؟»

فتنهدت، وأرخت يديها وتركتهما تهويان وقالت: «سأذكرك دائمًا.»

قلت: «كلًا هذا لا يكفي. سيحبك غيري.»

ولم تكد شفاتها تفرقان، وهمست كأنما تتنفس: «سأحبك دائمًا.»

وكان هذا آخر لقاء، فقد زوَّجوها في الريف.

حلاق القرية

وقعت لي هذه الحادثة في الريف منذ سنوات عديدة، قبل أن تتغلغل المدنية إلى أنأى قراه، وكنت أنا الجاني على نفسي فيها، فقد عرض عليّ مضيفي أن أستعمل موساه فأبيت، وقلت: ما دام للقرية حلاق فعليّ به، فحدّرني مضيفي وأذرنني ووعظني، ولكنني ركبت رأسي وأصررت أن يجيء الحلاق. فجاء بعد ساعات يحمل ما ظننته في أول الأمر «مخلاة شعير» وسلّم وقعد وشرع يحييني ويحدثني حتى شككت في أمره واعتقدت أن الحلاق شخص آخر، وأن هذا الجالس أمامي ليس سوى «طلائعه»، ولما عيل صبري سألته عن حلاق القرية، فابتسم ومشطّ لحيته بكفّه وأنبأني أن الحلاق محسوبي (يعني نفسه)، فلعننته في سري وسألته متى ينوي أن يطلق لي لحيّتي؟ أم لا بد أن يضرب بالرمل والحصى أولاً ويصحب الطالع قبل أن يباشر العمل؟ فلم يفهم وأولاني صدغاً كث الشعر وقال: «هياً» فظننته أصم وصحت به: «أ ... ر ... يد أن ... أ ... ح ... ل ق»، فسره صياحي جدّاً، وضحك كثيراً، وأقبل على «مخلاته» فأخرج منها مقصّاً كبيراً جدّاً، فدنوت من أذنه وسألته: هل في القرية فيل؟

فقال: فيل؟ لماذا؟

فأشرت إلى المقص. فضحك. وقال: «هذا مقص حمير ولا مؤاخذه». فقلت: «ولماذا

تجيئني بمقص الحمير؟ أجماراً تراني؟»

ويظهر أن معاشرّة الحمير بلّدت إحساسه فإنه لم يعتذر لي ولا عبىّ بسؤالي شيئاً،

ثم أخرج موسى من طراز المقص و«مكنة» من هذا القبيل أيضاً، فعجبت له لماذا يجيء إليّ بكل أدوات الحمير؟ وسألته عن ذلك فقال: إن الله مع الصابرين. وبعد أن أفرغ

مخلاته كلها انتقى أصغر الأدوات، وأصغرها أكبر ما رأيت في حياتي. ثم أقبل عليّ وقال: «تفضل.»

قلت: «ماذا تعني؟» قال: «اجلس على الأرض.» قلت: «ولماذا بالله؟» قال: «ألا تريد أن تخلق؟» قلت: «ألا يمكن أن أخلق وأنا قاعد على الكرسي؟» قال: «وأنا؟» قلت في سري: وأنت تذهب إلى جهنم ونعم المصير، وهبطت إلى الأرض كما أمر، ففتح موسى كالمبرد، فقلت: «إن وجهي ليس حديدًا يا هذا»، قال: «لا تخف إن شاء الله»، ولكنني خفت بإذن الله ولا سيما حين شرع يقول: «باسم الله، الله أكبر»، كأنما كنت خروفاً، ويبيصق في كفه ويشخذ الموسيقى على بطن راحته، ثم جذب رأسي، فذعرتُ ونفرتُ ووليتُ هاربًا إلى أقصى الغرفة، فقال: «ماذا؟»

قلت: «ماذا؟ أتريد أن تخلق لي بمبرد، ومن غير صابون؟»

قال: «ماذا يخيفك؟»

قلت: «يخيفني؟ لقد دعوتك لتخلق لي لحيتي لا لتبرد لي شعرها.»

قال: «يا فندي لا تخف.»

ثم قرأ من الكتاب الكريم ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ إلى آخر

الآية الشريفة، وأظنه أراد أن يرقيني بها، فيا لها من حلاقة لا تكون إلا برقية! وأسلمت أمري لله وعدتُ فقعدت أمامه، فنهض على ركبتيه وتناول رأسي بين كفيه وأمال صدغي إليه، ثم وضع ركبته على فخذي ولفَّ ذراعه حول عنقي، فصار فمي مدفونًا في صدره فصحتُ أو على الأصح جاهدت أريد الصياح لعل أحدًا يسمعي فينجدي، غير أن طيات ثوبه كانت في فمي، أما رائحة الثوب فبحسب القارئ أن يعلم أنها أفقدتني الوعي.

ولا أطيل على القارئ. فقد أهوى الرجل بموساه على وجهي فسלخ قطعة من جلدي فردني الألم إلى الحياة، وأتاني القوة الكافية للصراخ على الرغم من الكمامة، ووثبت أريد الباب، ولكنه كان على كبر سنه أسرع مني، وما يدريني لعله كان يتوقع ذلك، وعسى أن يكون المران قد علمه أن يكون يقظًا لأمثال هذه المحاورات، فردني بقوة ساعده. فتشهدتُ وتذكرتُ قول المتنبي:

وإذا لم يكن من الموت بدُّ فمن العجز أن تموت جبانًا

حلاق القرية

كلّأ سأسدل الستارَ على هذا المنظر الذي يقشعر منه جلدي على الرغم من كر السنين الطويلة. ثم جاء هذا السفّاح بطشّت يغرق فيه كبش، ووضعته تحت ذقني وصب ماءه على وجهي وفي صدري وعلى ظهري، ليغسل الدم الزكي الذي أراقه، وأخرج من مخلاته «منشفة» هي بممسحة الأرض أشبه، فاعتذرت وأخرجت منديلي وسبقته به إلى وجهي. فهي معركة لا تزال بجلدي منها ندوب وآثار.

سِحْرُ مَجْرَبٍ

لا أدري كيف أسوق للقارئ حكاية هذه التجربة بحيث لا يتوهم أنني أهزل، ولكن الذي أدريه أنه قلَّ بين الصبيان مَنْ اتفق له ما اتفق لي من التجارب، ولو أنه قُدِّر لي أن أكتب تاريخ حداثتي ... ولكنني هزيل الصبر، ولعل مما هو حقيق أن يعين القارئ على فهم البواعث التي تغري حدثاً في مثل سني يومئذٍ بما فعلت، أن أقول له: إنني نشأت نشأة دينية، وأعني بذلك أن أهلي من أهل الورع والتقوى والصلاح، وأن بيتنا كان في فنائه مصلياً أو مسجد صغير عامر أبداً بالمصلين ليلاً ونهاراً. والآن إلى القصة بعد هذا التمهيد الوجيز الذي لم أرَ منه بدءاً اتقاء لسوء التأويل ونفيًا لمظنة المغالاة.

عثرت في باكورة حياتي على أوراق مخطوطة استولت على هواي واستبدت بخاطري، وقد اعتقدت يومئذٍ أنها بخط جدي لأبي وإن كنت لا أذكره إلا كالحلم، فقد مات في طفولتي ولحق به أبي، ولم أره قط يكتب ولا ثبت عندي أن هذا خطه، وكنت أكبر جدي وأجل ذكره لغير سبب سوى ما كان تلاميذه يحدثونني به عن علمه وتبحره وتقواه، فقوى اعتقادي هذا ثقتي بما في الأوراق وثبت يقيني فيها، وكان من عاداتي أن أقضي الصيف في الإمام حيث تقيم طائفة كبيرة من أهلي، وكان لأحدهم حمار مليح القسماات لين الخطوات، فكنت أركبه حين أشاء إلى حيث أشاء، وأبى الحظ إلا أن أعشق، وما أكثر مَنْ عشقت في تلك السنوات الأولى من شبابي. ولقد صدق أخي «العقاد» حين قال يصفني بعد ذلك بأعوام عدة:

أنت في مصر دائم التمهيد بين حب عفا وحب جديد
بين ما مضى لم يذبل الحسن منه وطريق كاليانع الأملود

أنت كالطير ربما شالت الطير — رُ عن الأيك وهو جم الورود

ولم يكن الحظ يلقيني إلا على كل فتاة «عسيرة البذل» كما يقول الشاعر — ولا أذكر من هو — فحرتُ ماذا أصنع، ولم أرَ أن أستشير أحدًا من الصبيان الذين كنت أختلط بهم؛ لأنني كنت أراهم دوني معرفة، ثم تذكّرت الورقات التي كنت أعتقد أنها مما خُلف جدي، فوجدت فيها «فائدتين» طرت بهما فرحًا، فأما الأولى فتقول: «من أراد الارتقاء إلى الدرجات العلا فليظهر ظاهرًا وباطنًا، وليصم سبعة أيام وليواظب دُبر كل صلاة على هذه الأسماء — يا هادي يا خبير يا متين يا علام الغيوب — ألف مرة، فإنه يُكشف له عن كنز الأرض ويُنادى به في ضمائر الناس، وإن أكمل ثلاثة أسابيع في الرياضة كُشف له عن ملكوت السموات والأرض بإذن الله تعالى، وأما صفتها للإخفاء فهي أن تقرأ الآية الشريفة سبعمائة وخمسين مرة، ثم تقول بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ — إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ — ثلاثمائة وثلاث عشرة مرة، فلو اجتمع أهل السموات والأرض على أن يبصروك لم يقدروا ويُعْمي الله أبصارهم عنك فلا يرونك، وأكثر من ذلك أن يُحوّل الله قلوبهم إليك بالرأفة والمجد والعطف.»

وكان هذا كل ما في الورقة، فأما كنوز الأرض فلم يكن يعنيني منها يومذاك شيء، فما كان لي هوى إلا مع تلك الفتاة، أو رغبة إلا في إلانة قلبها. وأما الكشف عن ملكوت السموات والأرض فشيء مرعب خفتُ أن أعالجه فأصعق. وأما الاختفاء عن الأبصار فهذا ما سحرني واستولى على لبي، وتشبث به خيالي. ألسْتُ أستطيع إذا فزت بذلك ووفقت إليه ببركة هذه الفاتدة، أن أكون أدنى شيء إلى الفتاة وأن أراها ولا تراني وأتملّ بحسنها وقربها وهي ذاهلة عني لا تحسني؟

ألسْتُ أستطيع بفضل هذا السر الجليل أن أكون حيث أشاء، وأن أفعل ما بدا لي بلا تثريب، لا تراني الأبصار؟ وا فرحتاه! أي شيء أتقي بعد ذلك؟ أي شيء يصعب علي؟ تالله ما أولاني بحمد الله على أن كان لي مثل هذا الجدّ الصالح؟

ولكن الورقة لم تذكر الآية التي لا بد من تلاوتها سبعمائة وخمسين مرة، فماذا أصنع؟ حرتُ قليلًا ولكنني كنت فتى عمليًا، فتناولت المصحف الشريف وقلبته حتى وقعت عيني على قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وأقنعت نفسي بأن كلام الله كله في منزلة واحدة من الجلال، وأن كل آية ككل آية، وليست كلمة منه بأفضل من أخرى غيرها. وما أرى حتى الآن إلا أن منطقي كان مستقيمًا وتفكيري كان سليمًا سديدًا.

وأما «الفائدة» الثانية فتقول ما يأتي: «ومن أراد إقبال الناس عليه بالمحبة والهيبة والتعظيم له في قلوبهم فعليه بقراءة هذه الآية الشريفة عقب الصلاة أربعمئة وخمسين مرة، ثم يتلو بعدها هذا الدعاء الجليل سبعة آلاف مرة، فإنه يحصل له من الخير ما لا تُدرُكُه الأفهام وهي هذه: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، يا الله (ثلاثاً)، يا رحمن (ثلاثاً)، يا رحيم (ثلاثاً)، لا تكنني إلى نفسي في حفظ ما ملكتني مما أنت أعلم به مني، وامدني برقيقة من رقائق اسمك الحفيظ الذي حفظت به نظام الموجودات واكسني بدرع من كفايتك، وقلدني سيفاً من نصرك وحمائتك، وتوجني بتاج عزمك ومهابتك وكرمك وركبني مركب النجاة في المحيا وبعد الممات بحق خجش ثخذ، وامدني برقيقة من رقائق اسمك القهار تدفع عني بها من أرداني بسوء من جميع المؤذيات، وتولني بولاية العز يخضع لي بها كل جبار عنيد وشيطان مريد يا الله يا عزيز يا جبار (ثلاثاً)، ألقِ عليّ من زينتك ومن محبتك وكرامتك ومن حضرة ربوبيتك ما تبهر به العقول وتذل به النفوس وتخضع له الرقاب وترق له الأبصار وتبدد دونه الأفكار ويصغر له كل متكبر جبار، وتسخر له كل ملك قهار يا الله يا ملك يا عزيز يا جبار (ثلاثاً)، يا الله يا واحد يا أحد يا قهار (ثلاثاً)، اللهم سحر لي جميع خلقك كما سحرت البحر لسيدنا موسى عليه السلام ولين لي قلوبهم كما لينت الحديد لداود عليه السلام فإنهم لا ينطقون إلا بإذنك، نواصيهم في قبضتك وقلوبهم في يدك تصرفها كيف شئت يا مقلب القلوب (ثلاثاً) يا علام الغيوب (ثلاثاً)، أطفأت غضبهم بلا إله إلا الله، استجلبت محبتهم بسيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَعْتَ أَيْدِيَهُمْ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.» ويكون ذلك في جوف الليل، ثم تصلي ست ركعات فإذا سلمت تقرأ الدعاء تسعمائة وخمسين مرة، وفي حال قراءتك للدعاء تصور المطلوب بين عينيك كأنك تجذبه إليك، فإذا وقفت العدد المطلوب تقرأ هذه الآيات سبعا وهي ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿وَأَلْفَيْتَ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ تقرأ هذه الآيات سبعا وأنت في كل ذلك تبخر بالجاوي واللبان الذكر.

ثم طويت الورق ووضعت في جيبي وخرجت إلى السوق، وقد بدأت أشعر كأني فوق الناس، أو كأني أمشي في السحاب، واشترت قليلا من الجاوي واللبان والفحم،

وخرجت على الفتاة وأنا عائد إلى البيت، فلما رأنتي أحمل هذه الأشياء ضحكت وقالت «أترُك صرت خادماً؟ مبروك إن شاء الله»، فألقيت إليها نظرة عطف مشوبةً بالكبر، وقلت ملغزاً ويدي على جيبتي «أترين هذا الجبل؟ - وأشرتُ إليه - سيحمل الليل إليك صوتاً منه» ومضيت غير عابئٍ بضحكها وسُخرها.

ولا أطيل، خلوتُ بقية النهار إلى نفسي حتى فرغتُ مما فرضت «الفائدة الأولى»، ثم قمت بعد العصر بقليل وفي اعتقادي أنني قد اختفيت عن أعين الناس، وقصدت إلى حيث الحمار مقيد ففككت القيد وأسرجته وأجمته ووضعت عليه «خُرْجاً» فيه ما يلزمني من مواد البخور وأعواد الثقاب والفحم وسُبحة وموقد صغير وإبريق فيه ماء، ووضعت فوق «الخُرْج» فروة صغيرة لجلوسي، ثم ركبت الحمار بعد أن صار أعلى من البغل وسرت به بين المساكن إلى الجبل، وكان الناس قد ألقوا مني هذا الخروج، فلم يلتفت إليّ أحد، ولكنني كنت أعجب لهم في ذلك اليوم كيف لا يدهشهم أن يروا الحمار سائراً وحده وليس عليه راكب؟ وعللتُ ذلك بأن السرَّ الذي أخفاني عن أبصارهم لا بد أن يكون قد امتد إلى الحمار أيضاً فتوارى مثلي عن العيون، فجعلتُ أتلفتُ يميناً وشمالاً وأضحك، واتفق أنني مررت بشيخ كليل البصر وإن كان فيما ترى العين سليم النظر، ولكنني لم أكن أعرف ذلك - فحككت له أنفي بسبابتي ورحتُ أخرج له لساني وأمطُ شفتي تحت أنفي، فلما لم أجد التفت إليّ صفتت من فرط الجذل، ففزع الرجل قليلاً، فقلت لنفسي سمع الصوت، ولم يرَ الشخص فحقَّ له أن يفزع، فطغى بي الطرب ولم أعد أطيق هذه المشية الهينة، فضربت الحمار فمضى يعدو بي إلى الجبل. وهناك في سفحه ترجلتُ وربطته إلى حجر على باب كهف صغير كنا - وأعني غلمان الحي - نُقيلُ فيه إذا حميتُ الشمس، وفرشتُ الفروة في جوف الغار ووضعتُ الفحم في الموقد، وأشعلتُ فيه النار وتركته للريح قليلاً لتضرمه، واستلقيتُ أنا على الأرض، وانطلقتُ أفكّر فيما سيكون من أمر الفتاة معي بعد أن أفرغ من العمل، وجمح بي الخيال فبدا لي كأنني في التهليل والتسبيح والدعاء فجاءني رجل وجلس عن يميني لم أرَ في زماني أحسن منه ولا أطيب ريحاً، فقلت: مَنْ أنت؟ قال: أنا الخضر جئتُك حباً في الله عز وجل، وعندني هدية أريد أن أهديها إليك فقلت: وما هي؟ قال: هي أن تقرأ. فقاطعته وقلت: كفى. كفى. لقد بح صوتي من القراءة فدع هذا وهات لي ...

ولم يعجبني هذا، فاخترت الحكاية وجعلتُ الخضر يقوم مغضباً وأنا لا أعبأ شيئاً، وعدلت بالخيال إلى سواه فتصورتُ الفتاة تهبُّ من النوم مذعورة تلهج باسمي

ويهدف بها هاتف أن اخرجني إلى مكان كذا في سفح الجبل، فتخرج في ظلام الليل حافية عارية الرأس في ثياب النوم ولا تزال تجري حتى تبلغ الكهف دامية القدمين من وخز الحصى والرمال، فتقف بالباب وتناديني فأدع القراءة وأصبح: مَنْ؟ فتقول: فلانة (أو لعل الأحسن أن تقول حبيبتك فلانة).

فأقول: «ماذا يجيء بك إلى هنا؟»

فتقول: «لم أطق صبراً.»

بل أ جعلها تقول: «رأيتك في نومي ناظراً إليّ محدقاً فيّ فجدبتني عينك ولم أزل أسير على ضوئهما حتى جنّت إليك.»

فأقسو عليها وأنتصف لنفسي منها وأؤدّبها غير أدب الصباح حين تهكمت عليّ وهنأتني بأن صرت خادماً أقول لها: «ارجعي من حيث جنّت فما بي حاجة إليك.» فتجنّو على ركبتيها وتتوسل إليّ أن أدعها ولو عند قدمي ...

ولم يعجبني أن أتصورها تجنّو عند قدمي، فقد كنت رقيق القلب مهذب النفس فغيّرت الموقف واعتضت منه آخر، فشرعت أغازلها تلميحاً لا تصريحاً، وأصف لها جارة دميمة الساقين ضخمة القدمين فتسألني: ماذا تعني؟

فأقول: أعني أن للساق الجميلة سحرها.

فتقول: «ولكن ماذا يعنك من ساقِي هذه الفتاة؟»

فأقول: «إنها تفسد عليّ اليومَ كله حين أراها، وأخشى جداً أن تفسد لي صحتي.»

فتقول: «إنك مضحك ولست أفهمك.»

فأقول: «تصوّري هذه الفتاة التي سلبتها الطبيعة كل مفاتن المرأة كيف يكون ألها لو أن الشهرة (المؤدّة) كانت تقضي بأن تكون ثياب النساء قصيرة؟ كيف تجرّو أن تبدي ساقها لعيون الناس؟!»

ثم أطرق برهة فتردني إليها بسؤالها عني: ماذا بي؟

فأقول: «بي هذه الطبيعة التي تأبى إلا أن تخرج إلى الدنيا مثل هذا التشويه.»

فتقول: «لعل الفتاة سعيدة لا تظن إلى عيبها.»

فأقول: «سعيدة؟ أتكونين أنت سعيدة لو كنت مثلها؟»

فتسري في بدنها رعدة خفيفة فأكرُّ عليها بقولي: «بأي حق تمنحك الطبيعة كل ما

حبّتك من المفاتن وتسلب تلك المسكينة كل هذا الذي ضنّت به عليها؟»

فتتهلل أسارير وجهها وتقول: «ولكن لعلها لا تكثرث لذلك.»

فأقول جادًا: «أين الفتاة التي لا تحفل أن تكون دميمة؟ تصوري ما لا بد أن يصيبها من الألم حين تراك؟»

فترفع عينها إليّ وتحذق في وجهي لتقرأ فيه المعنى الذي أرمي إليه والذي يغالطها صوتي في حقيقته وأمضي أنا في حديثي فأقول: «إن كل ما جادت به الطبيعة عليك ينقصها ...» فتقاطعني وتقول: «ولكن ما ذنبي أنا حتى تحطّم لي رأسي بها؟» فأقول معتذرًا: «هل ضايقتك بحديثها؟ إني آسف. ولكن هذه المناظر تستفز نفسي وتثير سخطي كأني وحش.»

فتقول: «ألا تظن أنك قد تفيء إلى السكينة والهدوء إذا تركتك وحدك؟»

فأنهض وأقول: «لا لا لا! يا لها من فكرة شنيعة!»

فتقول: «إنك على ما يظهر ...»

فأقاطعها وأقول: «سأنسى ساقها ولا أفكر إلا ...»

ولكني لم أشأ أن أعترف لها حتى في الخيال ولم يرُقني هذا الحوار وما فيه من اللف والدوران، فغيّرت المنظر وحوّلت الصحراء المحيطة بي جنة فيحاء حافلة بالشجر حالية بالزهر، وتصورت نفسي أطوف فيها باحثًا عن فتاتي، ثم إذا بي أرى ثوبها فأمضي إليها على أطراف أصابعي، فيعترضني حاجز من النبات الكثيف الشائك فيخطر لي أن أتسلل إليها حتى أصير إلى جانبها قبل أن تشعر بي، ولكن النبات المتشابك تحيط بي أشواكُه وأنا أعالج اختراقها، وتسمعي هي فتدير وجهها إلى ناحيتي فتراني، فتصبغ الحمره وجهها — ومن عنقها إلى جبينها — ويعبث النسيم بشعرها ويطيّر على وجهها وكتفيتها فتمسحه بكفها وتردّه عن جبينها، ثم تقف ويدها في جانبي خصرها، وشفتاها مفترقتان من المفاجأة، وكأنها تحاول أن تعلق أنفاسها مخافة أن تذهب زفرةً بالسرور المباغت الذي شاع في كيانها حين رأنتني.

ثم تهمس «إبر ... اهيم.»

فأصيح وأنا أعالج من أسر الأشواك: «لقد سُجنتُ هنا.»

فتقول: «لقد قلت لي: إنك لن تأتي قبل أسبوعين ثم هذا أنت.»

فأقول «إذا لم تأتي إلى نجدتي فلن أجيء إليك قبل عام.»

فتضحك ويسرّها ما أنا فيه فأصيح بها: «مهلاً ريثما أتخلص.»

وأحاول الخلاص فأزيد تورطًا، فتصفق وقد أمتعها منظر اعتقالي وتقول: «لن تنفذ

أبدًا من هنا. فارجع. ذلك خير وأسرع.»

وتخزني شوكة فأهيب بها أن تنجذني فتضحك وتقول: «إن منظرک ظريف. ليت هناك مرآة فترى نفسك فيها.»

فأضحك من نفسي وأقول لها: «إني لم أمش كل هذه المسافة ليكون منظري مضحكاً. وما أراني أستطيع الآن أن أحرّك إصبعاً فإن الشوك يتلقاني من كل ناحية. بالله نحي هذه الشوكة عن ذقني فإنها تكاد تقتلني.»

وترى الدم سائلاً من ذقني فيدرکها العطفُ عليّ، فتحنّي الشوك بيديها عن وجهي وتضعفه بكفيها فيدون وجهها مني، وتصيح عينا في عينيها، وأنفي قبالة أنفها، وفمها أمام فمي، ويقرأ كل مناً في عيني صاحبه من آيات الحب ما لا سبيل إلى العبارة عنه، ثم يدور رأسها، وتهيم نظرتها وتهوي على فمي بفمها، ويحطُّ في هذه الساعة عُصيفير على غصن وينطلق يغرّد.

ولما بلغتُ إلى هنا فيما تخيلتُ وبينما أنا أتذوق القبلة التي صورتُها مطبوعة على فمي، نهق الحمار! فانتبهتُ مذعوراً من حلمي اللذيذ! ومُحيثُ الصور الفاتنة وانتسختُ الخيالات الأنيقة المعجبة وردني الصوت المنكر إلى ما جنّت من أجله، فقمّت متثاقلاً وفرشت الفروة في أرض الكهف وأطلقت البخور في الموقد، وقمت إلى الصلاة، ثم شرعت في التلاوة على نحو ما حتمّت الورقة.

ولا أدري ماذا أصابني، ولكن الذي أدريه أنني ظللت أقرأ وأقرأ في جوف الليل وأطلق بخور الجاوي واللبان، ثم لم أعد أعي شيئاً. ولما قمت في الصباح كان ضوء الشمس قد غمر السهل والجبل، فخرجت من الغار وأنا لا أفهم، وأدرت عيني في كسل وفتور ثم تذكرت الحمار، فجمد دمي في عروقي، وأحسست العرق البارد يتصبب. أين ذهب؟ وكيف يفك القيد عن أرجله ويحل اللجام عن الصخرة؟

ولا خير في الإطالة فقد سرقه اللصوص وأنا ملقى كالجثة في جوف الغار، بارک الله في جدّي وفوائده...!

الفروسية

دُعينا مرة — أنا وطائفة من الإخوان — إلى قضاء يومين في ضيعة أحدهم، وكانت قريبة من إحدى الضواحي فركبنا القطار إلى ... وهناك وجدنا طائفة شتى من الخيل والبغال والحمير، فتوهمت في أول الأمر أن هناك سوقًا للدواب أو معرضًا لها. ثم علمت أنها لركوبنا. فاخترت من بينها حمارًا صغيرًا وهممت بامتطائه، ولكن صاحب الضيعة وداعينا عزَّ عليه أن يركب «المازني» حمارًا، وجاءني بجواد أصيل وأقسم عليَّ لأركبته. فاستحييت أن أقول له إنني أخاف ركوبه، وإنه لا عهد لي بالخيل، ودنوت من بعض الخدم وهمست في أذنه هذا السؤال: «قل لي: كيف تركب هذا الحصان؟» فتأملني مليًّا ثم قال وعلى فمه طيف ابتسامة: «على ذيله!» قلت: «على ماذا؟»

وأشاح عني بوجهه. فذهبت إلى الجواد وأدرت عيني في ذيله ثم هزرت رأسي وعدت إلى الخادم أسأله: «ألا تظن يا صاحبي أن الأحزم أن أمتطيه قريبًا من العنق لأستطيع عند الحاجة أن أطوقه بذراعي؟»

فلم يزد الرجل على أن قال: «ربما» وانصرف عني إلى سواي، وكنا جميعًا في هرج ومرج نصيح ونضحك، وكان لا بد أن أفعل شيئًا فناديت مضيفنا وقلت له: «أريد سلّمًا.» قال في دهشة: «سلّمًا؟ ما حاجتك إليه؟»

قلت: «حاجتي إليه أنني أريد أن أصعد إلى ظهر هذا المُجَبِّي يا صاحبي.» فضحك وقال: «أنا أساعدك» ودفعني على ظهر الجواد دفعة خيلٍ إليَّ أنها ستلقيني على الأرض من الناحية الأخرى.

وسرنا مسافة على مهلٍ ثم وخز أحدنا دابته فمضت تعدو واستحثَّ آخر مطيته، وانطلق بها وراءه، واقترب مني ثالث وأهوى على جوادي بعضا معه، فوثب الجواد وراح

يسابق الريح — أو هكذا خيل إليّ — وأنا أعلو وأهبط فوقه، حتى أحسست أن أمعائي ستنتقلع، وألمس بيدي شيئاً أمسكه وأتعلق به فيفلت من قبضتي كل ما تصل إليه، فارتमित على عنقه وطوّقتها، وجعلت أنادي من حولي وأناشدهم الذمة والضمير والمروءة أن يوقفوا هذا الشيطان. وأدرك أحد إخواني العطف عليّ، فصاح بي «ولكن كيف نوقفه ونحن راكبون؟»

فغاضني منه هذا البكّه ولم يفتني ما في الموقف من فكاهاة على الرغم من الألم الذي أعانيه وما أتوقعه إذا ظل الجواد يركض بي، فقلت له: «يا أبله انزل واقبض على ذيل حصاني وشُدّه.»

وكان أحد الخدم قد أدركني وأمسك بالجام ورد الجواد، فما أسرع ما انحدرت عنه، وكأنما أعجبتني جلستي على الأرض، فأخرجت سيجارة وأشعلتها وذهبت أُدخّن، وجاءني مضيفنا على أتانه فسألني: «أتنوي أن تقعد هنا إلى الأبد؟» فأغضيت عن سؤاله وقلت: «إن بي حاجة إلى الشعور بثبات الأرض بعد كل هذا التقلقل وتلك الزعزعة.»

قال: «ولكنك لا تستطيع أن تظل جالساً هكذا. إن أماننا سير ساعة.»
قلت: «سألحق بكم إذن، أو أرجع إذا كان لا بد من ركوب هذا الزلزال.»
قال: «ولكن لا يليق أن تركب حماراً.»
قلت، وقد صار في وسعي أن أضحك: «في وسعك أن تعلق ورقة تكتب فيها أنه جواد مُطَهَّم.»

قال: «لا تمزح، قم اركب حماري هذا.»
قلت: «إذا كان الحمار عالياً فما الفرق بينه وبين الجواد؟»
قال بلهجة اليأس أو المنتقم: «إذن خذ هذا.»
وأشار إلى جحش قميء مهين يركبه خادم، لا سرج عليه ولا لجام له، فقمت إليه وامتنطيته بوثة واحدة وبلا مُعين.

واعترضتنا قناة عريضة عليها ألواح مثبتة تقوم مقام الجسر، وبين الألواح والماء تحتها مترٌ على الأقل، فلما توسّطها الجحش بدا له أن يقف، وراقه منظر الماء، فأجال فيه عينيه برهة ثم خطا إلى حافة الجسر — ولم يكن له حاجز — ومد عنقه إلى الماء، فظننت أنه قصير النظر وأنه يفعل ذلك ليكون أقدر على رؤية خياله في الماء واجتلاء طلعتة البهية في صقاله، ولكنهم قالوا لي: إنه كان يريد أن يشرب. فنزلت عنه وقلت

له: «يا عزيزي إن من دواعي أسفي أنني مضطر أن أتركك إلى الماء وحدك. فإن ثيابي يفسدها الماء وهي غالية إذا كانت حياتي رخيصة.»

ولكنه بعد أن فكّر قليلاً غير رأيه، إما لأن الصورة التي طالعتة في صفحة الماء كانت مضطربة مشوّهة وعجز الماء عن أداء ما فيها من جمال وروعة، أو لاعتبارات حمارية أخرى لم يكشفني بها. فأدار وجهه ومضى غير ملتفت إليّ، غير أنني لحقت به بعد أن اجتاز الجسر، وقلت له: «تعالّ لا تهرب مني يا صاحبي» وكنت على ظهره قبل أن يتمكن من الاعتراض أو الاحتجاج أو الإفلات.

ويطول بنا الكلام إذا أردت أن أصف كل ما أمتعني به من الفكاهات العملية، فقد كان فيه عناد وصلف، وكان يأبى أن يتوسط الطريق ولا يرضيه إلا أن يحك جنبه في كل ما يلقيه من شجر أو عربة أو حائط، وكان ربما وقف وغرس رجليه في الأرض. ونام. وتعودت منه ذلك وفطنت إلى أنه ذو مزاج مستقل، فكنت أتركه واقفا حتى ينتبه من هذه الإغفاءات، أو يعود إليّ من سباحات عقله السقراطية، فنستأنف المسير وحسبي وحسب القراء أن أقول لهم: إنني أسفت على فراقه لما انتهت الرحلة، وتمنيت لو أن صحبتنا كانت أطول.

الطفولة الغريبة

أظنني كنت في الرابعة أو الخامسة، فما أذكر على التحقيق كم كانت سني، والطفل عندنا — أعني في بلادنا — لا يفكر، أو على الأصح لا يُسمح له أن يفكر في مثل هذه السن، ويُخيل إليّ الآن وأنا أدير عيني في تلك الأيام كأن وظيفة الآباء والأمهات كانت صرف الأبناء عن النظر والتفكير، وإلزامهم الجمود ونهيبهم عن كل حركة جسمية أو عقلية. والطفل — كما تعلم الآن — أكثر ما تكون حيويته في أعضائه، فرغبته في الجري والوثب وما إلى ذلك طبيعية، وهو أشد من الكبار صبراً على ذلك ولجاجة فيه لقلّة ما يشغله غيره، وهو جديد في هذه الدنيا، فشوقه إلى معرفتها معقول، ومن هنا مدّ يده إلى كل ما تقع عليه عينه وتناولته وتقليبه وتحطيمه أو إفساده، وليس التحطيم أو الإفساد غايته، ولكنها المعرفة، والآباء يشفقون على أشياءهم من مغبة هذا التناول، فيمنعون التجربة ويأخذون على المعرفة طريقها.

ولست أذكر أنني هممت مرة باللعب إلا زجرني عنه واحد من الكبار، أو مددت يدي إلى شيء إلا نُهيت عن لمسه، وما كان أصعب السكون المُقضى عليّ به، بل ما أقل ما كان الجمود يرضيهم! فأنا إذا لعبت «شقي»، وإذا سكنت فلا شك أنني مريض! وكان ملجئي الوحيد أبي، هو وحده الذي كان يبدو لي أنه يفهم. وقلما كنت أجالسه لأنه رجل، والرجل في ذلك العصر، مكانه بين الرجال لا بين الأطفال والنساء، حتى الأكل كان يتناوله وحده، أو مع ضيوفه في «منظرة» الرجال. حتى القهوة تُصنع وتُرسل إليه. فهو في منزله وحده، وكل من في البيت يخدمه حتى أمي. بل حتى أمه هو. يستيقظ أهل البيت ويكون هو لا يزال نائمًا. فالكلام همس، والسير على أطراف الأصابع، والأطفال يُحملون إلى مكان

قصي من تلك الدُور القديمة الواسعة لئلا توقظه ضوضاؤهم. ثم يفتح عينيه ويتأهب فينقلب السكون جلبة، هذه تجيء بالطشت والإبريق للوضوء، وهذه تُعدُّ الشاي، وتلك تهَيءُ الطعام، وكأنما يعتمد كل إنسان أن يُسمعه صوته ويُثبت له أنه يتحرك في خدمته، فالأصوات عالية، والنداءات متتابعة، «والبقاقيب» ملبوسة والأرجل تُدب، ويكون الشيء المطلوب تحت أنف الطالب فيقطع المكان ذاهباً وأياباً عشر مرات قبل أن يمد يده إليه، ويصيح وينادي ويسأل عنه كل مخلوق قبل أن يتفضل ويراه، ويحاسب كل مَنْ في البيت على اختفائه ويتوعَّد ويُذر، حتى إذا ظهر — وهو أدنى شيء منهم جميعاً — انطلق طالبه المتعامي عنه يصف الإهمال والعمى بما يفتح الله به عليه. ثم تقص هذه الحكاية بتفصيل وإفٍ شافٍ لأبي وهو يفطر أو يشرب القهوة على سبيل الاعتذار من الإبطاء، عليه والشكوى من الخدم وسائر أهل البيت، والتذمر من الدنيا وسوء الحظ فيها، والتبرم بهذه المتعبات التي تحفل بها ساعات الليل والنهار.

ولا أزال أذكر «علقة» من أجل هذا، وكانت أمي تطلب الطشت من الحمام والإبريق على بابه، فاحتملت الخادمة الطشت وذهبت به ولم تر الإبريق، فذهبت تسأل عنه خادمة أخرى أصغر منها وتصيح بها: «أين وضعت الإبريق يا ملعونة؟»
فقال الصغرى في ذلة وخوف: «لم أره والله!»

فصرخت الكبرى: «كيف لم تريه؟ لقد وضعت بيدي في الحمام فهل أخذه العفاريت؟!»

الصغرى: والله العظيم والله العظيم ... وحياة النبي ...

الكبرى: لا تحلفي يا ملعونة. سيصيبك العمى يوماً من الأيام من كثرة الحلف كذباً. أقول لك هاتي الإبريق وإلا صار يومك أسود!
أمي (بصوت عالٍ جداً): «أجننتما؟ ما هذه الضجة؟ ألا تستحيان أن تتصايحا هكذا وسيدكما في البيت؟»

الكبرى: يا سيدتي لقد أضاعت هذه البنت الإبريق. وانظري كيف تحلف أنها لم تره.

أمي: أين يا بنت الإبريق؟

الصغرى: والله العظيم والله العظيم ... والله ... والله ...
أمي: ألم أقل لك كُفي عن الحلف.

ودفعتنا بيدها وأطلقتها لتبحث عن الإبريق فدخلت المسكينة ووقفت بباب الحمام وأسندت كتفها إلى الحائط ولكنها لم تبحث عن الإبريق، وكان بجانبها على مسافة شبرين منها، بل وقفت تبكي لا كما يبكي الناس، بل بحنجرتها دون عينيها. أعني أنها كانت تُخْرِج مثل صوت الباكي المعول ولكن عينيها جامدتان.

ودخلت في أثرها الخادمة الأخرى وأمي وراءها. وعلا الضجيج وكثر الكلام، وكنت أنا أشاهد هذا كله وأرى الإبريق، ولكنني كنت مفتوناً بهذا الحوار الذي يدور على لا شيء، فلم أدلهم على مكانه، ولو أنني تكلمت لضاع صوتي الصغير ولغرق في طوفان هذه الضوضاء، على أنني لم ألبث أن شعرت كأن رأسي سيتهدم وعجزت عن احتمال هذه الحال، وبدا لي — لسوء الحظ — أنني حقيق بأن يكون لي من احترام النساء للرجال حظ ولو قليلاً قياساً على ما أراه من إجلالهن لأبي، فصحْتُ بهن، وأمي في جملتهن.

«يا للعمى! ألا ترين الإبريق وهو تحت أنوفكن؟ ما هذه الضجة الفارغة؟ لقد أوجعتن رأسي!»

فكان جزائي — كما أسلفت — علة.

نعم، كان المنزل جحيم الطفل. فهو مطالب بأن يكون له عقل الكبار واتزانهم وفهمهم، ولكنه محروم من مزاياهم ولا يُعامل معاملتهم. وكل شيء يصدر عنه معيب وخطأ. فاللعب عيب، والصمت عيب، والتهويم في المجلس عيب، والأرق عيب، والاستفهام عيب، ولا شيء فيما يرى الطفل محمود مشكور. ماتت بنت خادمتنا — وكانت في مثل سني — ولم أعلم أنها ماتت؛ لأنهم أجلونني عن البيت وأرسلوني إلى عمتي، فلما عدت ولم أجدها سألت عنها لأني افتقدتها، فكان كل من أستفسر منه عن اختفائها يتجهّم لي وينهرني عن السؤال لأنه عيب. فذهبت إلى أبي، وكان حليماً صبوراً رضي الخلق، فسألته عنها فأخبرني أنها ماتت. فعجبت ولم أفهم كيف تجرؤ أن تموت. فسألني أبي بدوره عن سر عجبي. فقلت له: «لأنها صغيرة.»

قال: «ولكن الموت ينزك بالكبار والصغار على السواء.»

فألححت وقلت: «ولكن يا أبي إنها لا تزال صغيرة فكيف يجوز أن تموت؟»

قال: «يا بني لا اعتراض على قضاء الله.»

قلت مصرّاً: «ولكنها صغيرة وهذا عيب.»
فضحك ومسح رأسي بكفه فلم أزد إلا لجاجة وقلت: «يا أبي. هل تسمح لي أن أفهمها أن هذا عيب وأنها لا يصح أن تموت؟»
قال وقد ضجر على ما يظهر، وإن ظل يبتسم: «يا بني كيف يكون الموت عيباً؟»
قلت مستغرباً: «أليس الموت عيباً؟»
قال: «كلّاً. إنها آجال.»

فأعجبني أن يكون الموت آجالاً وطربت جداً. ودنوتُ منه ووضعت كفي على خديه وقلت وقد خُيل إليّ أنني ظفرت بملهاة جديدة: «إذن ليس من العيب أن أموت أنا أيضاً.»
فصاح بي: «أعوذ بالله!» واكفهرُ وجهه لا أدري لماذا «إياك أن تقول كلاماً كهذا مرة أخرى.»

لا أدري لماذا! ... لقد فهمت ... ولكن بعد سنوات، تُرى ألم يكن في الوسع اختصارها.
وصار لي أخ صغير. لم أره حين جاء لأنني أُجليت عن البيت، فلم أكن في استقباله.
ولما عدتُ وأخبروني وسألت عنه من أين جاءوا به، قالوا، أو فهمت أنا منهم: إنه من عند الله، وإن الله هو الذي يرزق الآباء، فاقتنعت ورحت بعدها أتوقع أن أتلقى كل يوم من عند الله أخاً جديداً وساءني أن يرزقني الله أخاً لا أختاً.
فسألت أبي: لماذا لم يرسل الله لي أختاً بدلاً من هذا الأخ؟
قال: هذه مشيئة الله ولا حيلة لنا فيها.
قلت: ولكني أريد أختاً ...
فقال: ادعُ الله.

فلبثتُ بعدها أدعو الله ولاسيما قبيل النوم، وكنت أتوقع في كل مرة أن أصبح فأجد الأخت المرجوة تحت السرير أو في الدولاب أو بجانبني، ولكن الله لم يستجب لي قط.

وكان في البيت اثنان لا أراهما أبداً وإن كان ذكرهما على لساني أبي وأمي، وهما «الست» و «الأفندي»، فأبي يقول للخادمة مثلاً قولي كذا أو كذا «للت»، ويتحدث في أوقات شتى ولاسيما حين يكون معه رجال من أقربائنا عن هذه «الست»، وأمي لا تفتأ تقول «الأفندي قال، أو الأفندي أتى، أو الأفندي خرج» فأعجب أين هما؟ ولماذا لا أراهما؟ وأصعد إلى السطح باحثاً عنهما فلا أجدهما، وأدخل كل غرفة فلا أهدتي إلى أثرهما، وأنزل إلى فناء الدار فلا ألتقي بهما. أين ينامان يا تُرى؟ ماذا يأكلان؟ ألا يظهران أبداً؟

وعلى كثرة ما فكرت في أمرهما وبحثت عنهما لم يفتح الله عليّ بخير من أنهما لا محالة يلبسان «طاقية الإخفاء»، ولشد ما كان يلج بي الشوق إلى رؤيتهما، يدركني العطف عليهما أيضًا! وكثيراً ما كنت أقوم من النوم على صوت — لعله موهوم — فأتحيلُ أنهما داخلان، وأرهف سمعي وأنشر أذني في الليل وأفتح عيني جدًّا وأحدق في الظلام، وقد قمت على ذراع وربما تسللت إلى كل غرفة لعلّي أبصرهما، ناسياً في سبيلهما مخاوفي وما تثيره الظلمة، في نفوس الأطفال.

واتفق مرة أناً كنا جميعاً جلوساً في غرفة أبي وكان مريضاً — فدخلت الخادمة فأسرت شيئاً إلى أمي، فقالت لها هذه «أخبريه أن الأفندي مريض»، فصعدت روحي إلى حلقي وشعرت بالأسف على «الأفندي» والألم له، والفرح أيضاً؛ لأن مرضه قد يتيح لي أن أراه أخيراً ...

ودنوت من أبي — وكنت عليه أجراً — فابتسم لي ومد يده فوضعها على كتفي فأطرقت برهة ثم رفعت عيني إليه وقلت: «بابا». قال: «نعم» وجذبني إليه في رفق وعطف. قلت: «كيف صحة الأفندي».

فضحكوا جميعاً، أبي وأمي وجدتي وعمتي و... لا أدري من أيضاً. وقبّلني أبي، ولكنه لم يجبني لا هو ولا سواه. فلم أفهم هذا، وأحسست بالغيظ، ورحت أنظر في وجوههم نظر المحنق. ثم تولّني العناد، فعدت إلى أبي أسأله عن صحة «الأفندي»، فنظر أبي إلى أمي فتناولت هذه يدي وقالت: «عيب، الأولى كانت عفواً. وقد فاتت ولكن لا يليق أن تكررهما.»

فكدت أجن. لماذا يُخفون عني الأفندي والست، وهما يراهما كلُّ إنسان سواي، ويحادثهما على ما يظهر لي مما أسمع؟ لماذا أُحرم وحدي أن أبصرهما وأكلمهما؟! فقلت: «ولكني أريد أن أرى الأفندي». فقالت أمي: «عيب قلت لك عيب.»

وفي هذه اللحظة دخل جدي على مهل، ويظهر أنه سمع أمي تنهرني، وكان شديد الحنو عليّ فسأل «ما له؟»

فقصوا عليه الحكاية. فابتسم وأجلسني على ركبتيه ولم يزل بي حتى سرى عني، وجفت دموع الغيظ التي كانت تترقق في جفني فشرحت له المسألة وكشفت له عن جهودي التي بذلتها في الاهتمام إلى «الست والأفندي»، ولم يبق في الغرفة أحد لم يضحك

مني. ولكنني كنت فرحًا بإصغاء جدي وتشجيعه لي، وما كان يبدو على وجهه من
الاعتباط والجدل، فلم أعبأ بالضحك، ولما فرغت سألته: «والآن هل ستخفيهما أنت أيضًا
عني؟»

قال: «لا. لقد أخطئوا معك يا بني. وكان حقهم أن يدلوك.»
واستغنيت بعد ذلك عن البحث والتنقيب، فقد عرفت «الست والأفندي» وضحكت
أيضًا لما عرفتهما.

مقتطفات من مذكرات حواء

تنبيه

هذه المذكرات موضوعة على نسق «مذكرات آدم» للكاتب الأمريكي مارك توين (سامويل كيمينز) وهي تشبهها في الأسلوب الفكاهي، وقد جاريته في أشياء لم أدر كيف أخالفه فيها، مثل إنكار آدم أن حواء مخلوقة من ضلع من جنبه، واستغرابه بكاءها — والبكاء أشبه بالأنوثة — وعدم فهمه الأمومة إلخ. إلخ.

وقد أردت أن أمثّل بهذه المذكرات لما يأتي:

- أولاً: أن الخلود يمتنع معه الإحساس الجنسي، وأن قضاء الموت هو الذي يثير هذا الإحساس ويُنشئ غيره أيضاً.
- ثانياً: أن المرأة مخلوقة للنوع، فالغريزة الجنسية فيها أقوى منها في الرجل.
- ثالثاً: أن المرأة أقدمُ معجم للغة، فهي التي وضعت الأسماء ونحتت واشتقت وصقلت الألفاظ بكثرة الاستعمال.
- رابعاً: أن الخجل من مقتضيات المعرفة والإدراك.
- خامساً: أن الأمومة أقوى وأبرز من الأبوة؛ لأن المرأة هي الأداة لحفظ النوع.

وقد تناولت هذه المعاني من قبل في مقالات عدة، نُشر بعضها في «حصاد الهشيم»، مثل: «الجمال في نظر المرأة» و«مقتضيات الخلود»، وفي «قبض الريح» مثل: «المرأة واللغة أول معجم وأقدم ديوان»، ومقالات أخرى نشرتها في «السياسة الأسبوعية» ولم تُجمع بعدُ في كتاب.

(١) في الجنة

السبت، وجدتُ أن ما أغراني به آدم من كتابة المذكرات اليومية قد شغلني عنه، وأتاح له أن يطوف في الجنة وحده، وهو لا يفتأ يصبحني بالسؤال عن مذكرات اليوم السابق هل دونتها، وينصح لي بأن أكتبها قبل أن أنسى ما حدث، ولا أكاد أشرع في الكتابة حتى أراه ينسل ويذهب لا أدري إلى أين، ومن أجل هذا عقدت النية على ألا أكتب إلا في الليل بعد أن ينام.

اللاثين، آدم لغز لا أكاد أفهمه، لم يكن يعرف حتى أن اسمه آدم، ومن قوله أنه لا يشعر بالحاجة إلى اسم ما، ولما قلت له يوماً إن اسمي حواء قال: «ربما!» أليس هذا منه عجيبياً؟ وأعجب من ذلك أنني قلت له إن عليه من الآن فصاعداً أن يدعوني باسمي، فإنه أعذب في أذني من «هش هش» التي لا يزال يفتح فمه بها عليّ، فقال: إنه يقصد حين يصيح بي «هش هش»، أن أذهب عنه لا أن آتي إليه، وأنه لا يحتاج أن يناديني أو يدعوني لأنني لا أكاد أفارقه، فمن العبث أن يكون لي اسم إذا كانت فرصة استعماله لا تعرض أبداً، فلما احتججت عليه بأن لكل شيء في الجنة اسمه الذي يُعرف به، زعم أنني أنا التي اخترت هذه الأسماء وأطلقتها على مسمياتها، وأنه لا يدري لماذا أجشمه حفظ هذه الأسماء كلها وتصديع رأسه بها، وزاد على ذلك أنه لا يرى هذه الأسماء منطبقة على الأشياء أو موافقة لها، ودليله على هذا أنه ما من حيوان يجيبني حين أدعوه باسمه، ولكن هذا مع ذلك لا يعنيه، وإذا كان يروقني أن أكلّف نفسي مشقة التسمية فأنا وما اخترت لنفسي، غير أنه يرجو مني ألا أشركه في هذا العبث.

وهذه أول مرة سمعت من آدم مثل هذه الكلم فحزّ في نفسي وآلمني فبكيت وتوجعت، ولشد ما كانت دهشتي حين نهض آدم ودنا مني ورفع وجهي إليه وجعل يتأمل عيني! بل لقد همّ بأن يضع إصبعه في عيني، فنحيت يده عن وجهي وقلت له وقد غيَّض الغيظ والغضب عبراتي: «ألا تكفيك قسوة لسانك حتى تريد أن تفتقأ عيني؟»

فادّعى أنه لا يفهم كلامي وزعم أنه إنما كان يبغني أن يرى من أين يجيء الماء الذي يسيل من هذين الثَّقْبَيْنِ في وجهي. وقال: إنه لم يرَ حيواناً آخر غيري يفيض الماء من ثقوب وجهه، فصدفت عنه وبي من الألم ما لا أحسن وصفه. فلم أرَ أنه عبئٌ بصديّ عنه شيئاً، وطال انتظاري أن يعود إليّ ليعتذر، فخرجت من الكوخ أطلبه فألفيته ممسكاً هرة يحاول أن يعصر لها عينيها وهي تجاهد تريد التخلص من قبضته القوية، فاخطفتها منه وسألته: «ما هذا الذي تصنع؟»

فلم يجبني على سؤالِي، ورفع إليَّ وجهًا قرأت في أساريره الدهشة والملل وقال: «ها ها! أو جئت ورائي؟»

فأعدت عليه السؤال فكان جوابه أنه أراد أن يعرف من أين يجيء الماء إلى هذه الثقوب التي أسميها العيون. فأيقنت أنه لم يكن يروم أن يفقأ عيني، وصفحته عنه وزدت تعلقًا به.

الثلاثاء، لا يزال آدم يضحك مني كلما خرجت إلى البركة لأنظر فيها إلى نفسي، ولاسيما بعد أن وقعت فيها وأنا أتأمل خيالي في صقالها. ليته ينظر في مائها الصافي مرة. إذن لكفَّ عن هذه السخرية. وما أنسى يوم قمت فألفيتني راقدة في ظلِّ وارفة الأطلال لَفَاءً، وكيف نهدت أعجب لنفسي من عسى أن أكون؟ وأين أنا؟ وماذا جاء بي إلى هنا؟ وكيف كان ذلك؟ وكان على مقربة مني كهف يتدفق منه الماء إلى بركة. فقصدت إليها وانطرحت على بساط الروض، وجعلت أنظر في الماء وإذا تحت عيني — في جوف الماء — صورة تنحني وترمقني، فتراجعت فارتدت مثلي، فعدت أنظر، فعدت تحدِّق في وجهي بعينين جميلتين يفيض منهما العطف والحب، فلولا صوت رحيم هفا به النسيم إليَّ «إن ما ترين ليس إلا صورتك وخيالك»، لما انصرفت عن الماء إلى هذه الساعة، وإن آدم لقوي وجميل، ولكن ذلك الخيال الذي يتراءى لي في الماء ألين وأعذب.

الخميس، كل يوم يبدو لي من آدم خُلُقٌ عجيبٌ. كنت ألومه وأشكوه إلى نفسي وأؤنبه على هروبه مني واختفائه بين الأشجار، وأقول له فيما أقول: «إني أنسى كل شيء حين أكون معك، حتى الجنة لا أبا إليها ولا أحفل ما فيها، وإن نسيم الصباح حين يهبُّ بأصوات العصافير لذيذ، وإنه ليس أطيب من ريا الأرض بعد أن يجودها من السماء هاضب، ولا أرق من مقدم الليل علينا بنجومه الزهر وقمره الساري، ولكن ما من شيء في الأرض ولا في السماء يروقني أو يفتنني إذا لم تكن معي. فالعجب لك كيف تطاوعك نفسك على مجافاتي والفرار مني وأنا بعضك؟»

ففتح عينيه جدًّا وقال: «بعضي، ماذا تعنين؟»

فقلت: «نعم بعضك! ألسنت قد خلقت من ضلع في جنبك الأيسر؟» فوثب إلى قدميه

وقال: «من ضلع في جنبي؟ مَنْ قال هذا؟»

قلت: «إنها الحقيقة.»

فرفع يده إلى صدره وجعل يمر بأصابعه على ضلوعه ويتحسَّسها بعناية، ثم نظر

إليَّ وقال: «هذا غير صحيح. إن ضلوعي كاملة لا نقص فيها وقد عدتها أمامك.»

الجمعة، قال لي آدم إن في هذه التي أسميها «جنة عدن» أشياء كثيرة تسترعي النظر والسمع أيضًا، ولكني لا أنتبه إليها؛ لأن لساني لا يكفُّ عن الدوران، وأضاف إلى ذلك أنني أنا المخلوق الوحيد الذي لا ينتفع بعينييه وأذنيه. وأني أُفسد عليه الطواف في «الجنة» وأُحيل المقام فيها كالمقام في «ذلك المكان الآخر».

وقد اغتنمت هذه الفرصة ونهت آدم إلى أنني «أنثى»، وأن عليه أن يكفُّ عن مخاطبتي أو الإشارة إليّ بضمير المذكر، فهزَّ رأسه وقال: إنه يشك فيما أقول، ولكن الأمر لا يعنيه وإنه سيتحرَّى مرضاتي ما دام أن هذا يسرني، عسى أن يكفُّ هذا الرضا من غرَب لساني الذي لا ينفك يعترض.

السبت، لم أكن أنوي أن أكتب اليوم شيئًا. ولكني عثرت بقصاصة بخط آدم قرأت فيها هذه العبارة: «لقد كانت أيام الأسبوع كلها جُمعًا قبل أن يأتي هذا المخلوق الجديد الذي نفى عني الراحة وهدوء البال ...»

«بقية الكلام رديئة. ويظهر أن حواء كتبت تعليقها على عبارة آدم بسرعة وانفعال. على أنني مع هذا استطعت أن أقرأ الكلام ولكني أعتذر للقراء فإني أعلى بأبينا الشيخ عينًا وأعمق إجلالًا له من أن أسمح بنشر ما خطته أمنا المسكينة عنه في ساعة من ساعات الغضب.»

الأحد، مواظبة آدم على الكتابة تدهشني، وتعليه لذلك أبعثُ على الدهشة. فهو يقول إنه يقتل الوقت بذلك وينفي عن نفسه الملل. الملل حقًا؟ ألسنتُ معه أو نسُهُ؟

الثلاثاء، كان اليوم مطيرًا عاصفًا فامتنع آدم عن الخروج من الكوخ، فتركته ومضيت إلى البركة، غير أن المطر المنهمر شوّه صورتي جدًّا، فانكفأت عنها آسفة، وأدركني العطف على جرو صغير وجدته في طريقي فحملته معي إلى الكوخ، ولم أكد أدخل حتى انتهرني آدم وأبني على ما يسميه حماقة الخروج في مثل هذا الجو والرجوع بقدمين مثقلتين بالأوحال وتوسيح الكوخ بها. ثم سألني عما أحمل فقلت له: إنه جرو صغير أشفقت عليه من المطر والبرد. فقال: «لستُ أفهم هذا الولع بالحيوانات الصغيرة وضمها إلى صدرك وتقبيلك إياها ومناجاتها بأصوات لا معنى لها، وإزعاجي بعوائها ونباحها وموائها.» ثم انتزع مني الجرو وقذف به إلى الخارج.

الأربعاء، لست أنسى ما عشت نظرة الاحتقار التي رمانني بها اليوم آدم. كنت عند شجرة تين أقذف ثمرها بالحجارة. وحانت مني التفاتة فإذا آدم يرشقني بهذه النظرة كأنه سمرني بها إلى الأرض، ثم دنا مني وهو يقول: «هكذا ترمين»، وتناول حجرًا وراح

يقلدني ويتثنى ويتعوج ويلقي الحجر فيقع عند قدميه. وبعد أن شبع من الزراية عليّ والسخرية مني اعتدل وقال: «هكذا يجب أن تفعلي»، وسدّد ساعده القوي وقذف الحجر فانطلق من يده يقول «فوو»، وهوى التين إلى الأرض وتركني ومضى.

الخميس، يقول آدم إنه أخطأ حين علّمني «الرماية» كما يسميها ويزعم أن تعليمه إيائي أغراني بأشجار الفاكهة، وأني الآن أفرط في أكلها، وإننا مهددون بنفاذ هذا الغذاء أو «بالقحط» كما يقول على طريقته في المبالغة. وإنه على أي حال لا يتوقع خيراً من وراء حبي للفاكهة.

السبت، مرّ اليوم بلا حادث يُذكر سوى أن آدم وجدني أتسلق الشجرة المحرّمة فجدّمني بعنف وحذّرني من الدنو منها.

الأحد، قمت من النوم فلم أجد آدم، فذهبت أبحث عنه فلم أهدّ إلى مخبئه. وهذه رابع مرة يهرب فيها مني. فعدت إلى الكوخ متعبة وارتميت على الفراش الذي صنّعته له من ورق التين، إلا في سبيل الله ما كلّفت نفسي من أجله.

الاثنين، لا يزال آدم هارباً وقد حفيت قدماي. وأقلقني هذا الغياب الطويل الذي لا عهد لي ولا له به. أتراه ضل الطريق؟ إنه غريب الأطوار فلا يبعد أن يكون قد خرج من الجنة.

الاثنين، بعد أسبوع كامل قضيته في البحث وجدت آدم في أقصى الشمال. لقد بنى له كوخاً صغيراً هناك، له الله! فلولا الحيّة دلّنتني على مكانه ... ولكن صبراً.

الثلاثاء، لم أكن أحسب أن الحية تتكلم، وتا الله ما أطيبها وأعذب لسانها وأحلى حديثها. لا أكاد أضمها إلى صدري حين يصفح سمعي قولها «يا فتنة الدنيا ويا أجمل ما في السموات والأرض ويا أم البشر»، ولكن آدم يكرهها ويخافها ويحذّرني منها، ويقول: إنها نذير سوء، وإن كان لا يكتمني سروره بأن وجدت من يحادثني غيره.

الأربعاء، كان آدم يتمشى اليوم وهو مطرّق ويده خلفه، ويتمتم بكلام غير مسموع وليست هذه عادته فما رأيته يفعل ذلك من قبل. فتواريت خلف شجرة أراقبه، فلما دنا مني سمعته يقول لنفسه «وماذا أخشى من الموت إذا أكلنا من الشجرة وحل الموت في الدنيا؟ إن الموت مرغوب فيه من أجل بعضهم على الأقل.»

فمن بعضهم هذا؟ سأسأله عنه.

الخميس، قالت لي الحية إنها لم تكن تتكلم ولم يكن لها عقل، ولكنها مرت بشجرة استطابت رائحتها فصعدت إلى أثمارها والوحوش ترمقها وتمد أعناقها فتقصر عن بلوغ

التمر، وكانت جائعة فالتهمت منها ما لا يحسب الحاسب، فتغير كل شيء في عينها، ووجد لسانها السبيل إلى الكلام، وإن كان قد بقي لها شكلها، فوجهت عقلها إلى التفكير والتدبير في كل ما في السماء والأرض وما بينهما، وأضافت إلى ذلك - شكرًا لها - أن كل ما في الدنيا من خير وجمال مجتمع في وجهي الملائكي، وأنها لم تر لي نظيرًا، وأن هذا السحر الذي في عيني هو الذي جرأها على الظهور لي وأغراها بإدمان النظر إليّ. فسألته عن الشجرة أين هي، فلما دلّني عليها إذا بها الشجرة المحرمة، فأنبأته بأن ثمرها محرّم علينا. فأعربت عن استغرابها بأن تُحرّم علينا فاكهة الجنة، فبينت لها أن لنا أن نأكل ما نشاء من فاكهة الجنة ما خلا ما تحمل هذه الشجرة، وإلا كُتِب علينا الموت. فقالت الحية كلامًا كثيرًا معجبًا مطربًا شربته أذناي بلهفة، فجعلت أرمق الشجرة، ومنظرها وحده غواية، وفي أذني من الحية عذوبة حديثها، ومضى الوقت وأنا أستمع إلى الحية وأرى الشجرة موقرة بحملها الناضج وأشم عقبه الطيب. وعرضني الجوع فامتدت يدي إلى الثمرة فقطفت واحدة ثم ثانية ثم ثالثة فتفتحت عيناي، وأبصرت العري الذي أنا فيه، وقلت لنفسني: في أية صورة أبدو لأدم؟ وأُنبتّه بما وقع لي وطراً عليّ من التغيير وأشركه معي؟ أم أنفرد دونه بالعلم وأسدُّ بذلك النقص الذي مُني به جنسي حتى أساويه وربما فقته، فإنني أرى ضعفي يسترقني له؟ وهذا حسن، ولكن الله هو الذي رأني وعلم أنني عصيته؟ والموت لا بد أت بعد ذلك ولا مهرب منه الآن، وهكذا سأذهب أنا ويخلق الله لأدم حواء أخرى تعيش معه وتسعد بجواره. كلاً. كلاً إنني أحب آدم وأستطيع أن أحتمل كل صنوف الموت معه، ولكني لا أقوى على الحياة بدونه.

وثنيت خطواتي إلى الكوخ ولكني لم أجد آدم، فدرتُ في الجنة أبحث عنه فلم أعثر له على أثر، واضطرتت إلى الاختباء مرارًا؛ لأن الوحوش كانت تتقاتل ويأكل بعضها بعضًا، ولم تعد تطيعني كالعهد بها، ففرتت من الجنة بعد أن اختل فيها الأمن واضطرب حبل النظام، وأصبحت فيها فوضى، وجاوزت حدودها إلى الأرض.

الأربعاء، بعد أربعة أيام طوال وجدت آدم فألقيت عند قدميه الغصن الذي قطعته من الشجرة المحرمة مثقلًا بالفتح الشهوي، فنظر إليّ نظرة استغراب وسألني عن هذا الورق الذي أستر به جسدي فقلت ستعرف هذا متى أكلت من التفاح، فانترعه مني وعرائني فحجّلت فقال: لقد علمت أنك أكلت منه فقد هاجت الوحوش وهمت بأكلي، فركبت حمارًا فارهاً لم يزل يعدو بي حتى عدا عليه نمر فنجوت بجلدي ولما أكد، ورأيت المقام في هذه الجنة مستحيلًا، فخرجت منها وسيان عندي الآن أن أكل أو لا أكل فهاتي ما عندك فإنني جوعان.

وقضم قظمة وجعل يتذوقها ويقول ما أطيبها والله وإن كانت في غير أوانها! ثم نظر إلى نفسه فأدرك أنه عارٍ واستحيا فستر نفسه بالورق الذي نزعه عن جسدي، ونظر إليّ ثم أرخى طرفه وهو يقول: «ماذا تعنين بالوقوف عارية هكذا؟ اذهبي واستري نفسك.» ففعلت.

الخميس، اعترف لي آدم بأنه كان لا يُحسِن معاملتي ونحن في الجنة وقال: إن عذره هو أن المرء لم يكن يستطيع أن يحسِن شيئاً في تلك الجنة، وقد كان يخشى ألا ألحق به ويتوقع أن تضنيه الوحدة وتسقمه الوحشة وقبّلني «وعرّفني»، لقد خسرت الجنة ولكني ربحت آدم ...

(٢) بعد الخروج من الجنة

الثلاثاء، تالله ما أفسى آدم في هذه الأيام! إنه لا يفتأ يعنّفني ويلعنني ويحمل عليّ ما أجل أن أكلنا من الشجرة المحرمة وخرجنا من الجنة، وهو الذي أتتى على ذوقي لما أطعمته من التفاح، وقال لي فيما قال: «هاتي، ما أطيب هذه الفاكهة التي حُرمنها! وإذا كان هذا طعمَ ما حُرّم علينا فليت الشجرة المحرّمة كانت عشرًا! وهلم بنا نلعب بعد هذا الطعام الشهي، فما أعرف جمالك قبل اليوم ألهب حواسي كما يفعل الآن.»

ولم يدخر نظرة حُبٍّ ولا تجميشة غزل، وأعداني وألهبني فقاذفته نارًا بنار، ثم تناول يدي ومضى بي إلى غدير ظليل الشاطئ فاضطجعنا على البساط السندسي، ونثرنا حولنا وتحتنا وفوقنا عبق الزهر — الفل والياسمين والنرجس والقرنفل — ورؤينا من الحُب، ثم عقد النعاس أجفاننا فنمنا ملء عيوننا. ويا ليتنا لم نقم! فقد غدا عليّ يلومني ويتوجع مما صار إليه، ويحن إلى ما كان فيه، فقلت له: إنه لو كان مكاني لفعل مثلي، وذكّرته بأنه كان في الجنة يرمي إليّ بالزمام ويلقي حيلي على غاربي، وسألته لماذا تركني أفعل ما بدا لي ولم يأمرني — وهو الرجل وأنا المرأة — أن أجتنب الشجرة ولا أقرّبها؟ لقد كان سلوكه مغرّبًا لي ومشجعًا على اقتطاف هذه الثمرة المحرّمة.

فثار بي يلعنني ويقول: «أهذا جزاء حبي لك أيتها المرأة الكنود؟ ألم يكن يسعني أن أدعك وحدك للموت الذي جلبته على نفسك، وأن أنجو بنفسي فلا أتبعك؟ أما والله لأنت والحية سواء، وأنتك لألم منها وأبغض، وما ينقصك إلا أن تكوني على مثل صورتها وألوانها؛ ليحدرك الخلائق جميعًا، ولتتقيك ولا تغترّ بصورتك السماوية! ألا لماذا شاءت

حكمة الله أن يخلق هذه البدعة ولم يشأ أن يخلق الناس كلهم ذكراً ويملاً الدنيا بهم إذا كان لا بد من خلقهم؟»

فبكيت واسترحمته وعكفت على ركبتيه أقبلهما وأمسخ عليهما وجهي، فرثى لي ولان لي قلبه، فتشجعت وأدليت إليه برأيين يكفلان لنا الراحة ويقيان ذريتنا المصائب التي كُتبت عليهم بذنوبنا. فسألني عنهما فقلت: الرأي عندي — ما دام الموت لا مفر منه الآن — أن نتحرر، فنستريح ونترك الدنيا كما كانت، لا يعمرها أحدٌ من نسلنا، أو أن نتحرى ألا نجيء إلى الدنيا بنسل، فنحرم الموتَ حقَّه ونقضي عليه هو بالموت جوعاً. فقال آدم: يا بلهاء أتحسبن أن الله يتركنا نفعل شيئاً من ذلك؟ لقد أخرجتنا مشورتك من الجنة وهوت بنا إلى هذه الأرض، فأين يا ترى تقذف بنا مشورتك الجديدة؟ اذهبي اذهبي!

بعد شهر، لستُ أملُ التَّجواب في هذه الغابة الكثيفة. فإن لها لسحراً شديداً الأخذ. وقد ظللت فيها أمس وإن كنت لم أبعد عن الكوخ أكثر من فرسخ، فنشط خيالي وراح يريني أشباحاً ها هنا وها هنا بين الأشجار الغليظة الداخلة في الهواء التي تحجب الشمس فلا ينفذ منها شعاع. فوقفت برهة أفكر وأتخيل وأشرب نفسي روح المكان، فنعق فوق رأسي غراب ففزعت ثم غضبت على نفسي؛ لأنني فزعت ورفعت طرفي فأبصرت الغراب على غصن فوقي يصوبُ نظره إليّ، فاستحييت أن يراني كأنما كان قد فاجأني في خلوتي، فحذجته بنظري فحذجني بنظره، ولم يحوّل عني عينه، وكان كلانا صامتاً لا يقول شيئاً، ثم تقدم الغراب بضع خطوات على الغصن ليكون أقدر على تأملي، ورفع جناحه ودلّ رأسه من بين كتفيه، ونعق مرة أخرى نعقة أحسست أن لهجتها مهينة مبطنة بالزراية، فلو أنه كان يتكلم مثلي ومثل آدم ومثل الحية لما قال لي بأفصح مما قال: «ماذا تصنعين هنا بالله؟» وليس هذا من شأنه ولا كانت هذه الغاية له، وما من حقه أن يخاطبنا بمثل هذه اللهجة، ولكنني لم أرد عليه؛ استنكافاً مني للمناظرة مع غراب أسحم، وترفُّفاً عن المهاترة معه، فلبث برهة يدير عينه فيّ، ورأسه ممدود إليّ من تحت كتفيه ثم قذفني بإهانتين أخريين لم أفهم معناهما على وجه الدقة، وإن كانت دلالتهما واضحة. فلم أشأ أن أجاريه في بذائه وأمسكت عن دفع الإهانة. ويظهر أن جلمي أطمعه فقد رفع رأسه وأطلق في الغابة نعقة تبينت أنها نداء، فقد أجابه غراب آخر من قلب الغابة، وراح ذاك يسأل وهذا يشرح له الموقف، حتى ترك الغراب المدعو ما كان فيه وطار إليه وحط إلى جانبه فوقي، ومضى الغرابان الأسودان يتتاعبان عني ولا

يحفلان بوجودي، فلو أنني كنت بعيدة عنهما بحيث لا أسمعهما ولم أكن تحت أعينهما لما أساء الأدب في حقي إلى هذا الحد، فحرتُ وارتبكت، ثم بدا أن أدعما وأمضي في سبيلي وأحسب أن الغرابين الوقحين قد سرتهما هزيمتي فقد مطأ عنقيهما وراحا يضحكان مني ويرسلان خلفي الشتائم والإهانات حتى تواريت عنهما، وإني لأعلم أنهما غرابان لا أكثر، ولكنه من المؤلم على كل حال، بل مما يكوي غرور الإنسان أن يرى حتى الغراب يهزأ به ويتماجن عليه ويصيح به: «ما أطول شعرك! أوليس لك ثوب تلبسينه غير هذا الجلد القديم؟ ارفعي ذيله فإنه يكنس الأرض ويثير الغبار.»

ومن الغريب أنني ألفت نفسي عند باب الكوخ قبل أن أفكر في الطريق الذي أسلكه، وهكذا اهتدت رجلاي بعد أن ضل رأسي، لقد كدت أهُم بالبكاء ولكن فرحي بالرجوع سالمة أنساني الدموع.

بعد أسبوعين، آدم يحمل عليّ ويرهقني بالعمل ويكتفي هو منه بالإشراف. ولا أدري ماذا يكلفه «الإشراف»، ولكن الذي أدريه أنني مستعدة أن أقوم به عنه وأن أدع له ما أنا فيه، وقد ثقلت وأراني أميل إلى التمرد، وسأدعي المرض غداً فإن لم تصلح الحال بعد فأسأرب وأختفي في بعض الأدغال ليعرف قدرتي.

بعد خمسة أيام، هربتُ ثلاثة أيام ثم لم أطق البعد عنه فرجعت إليه وادعيت أنني كنت تائهة، وقلت: «إني منهكة ولا أكاد أقوى على النهوض.» فخرج آدم متذمراً وغاب عني اليوم كله فكدت أجنُّ من الشوق إليه، وثبت من ذنبي واعترفت له بالحقيقة.

بعد ثمانية شهور، سميتُ قابيل، وهو حلو أحمر لا شعر عليه غض اللحم، وأكاد من فرحي به وحببي له أكله! وكان آدم قد خرج للصيد فلما عاد بعد أيام سألني عنه ما هو؟ فلم أدري كيف أقول، وحملته إليه وأدنيته من فمه ليقبله، فظن أنني أقدمه له طعاماً، ونحى وجهه وصدني بيده وقال: أوحشُ أنا حتى أكله حياً؟ ولما قلت له: «وضعته» وأنا عائدة إلى الكوخ لم يصدقني وزعم أنني «وجدته»، وقال: إن به مشابهة مني ولكنه صغير جداً فهو على الأرجح حيوان جديد، وتناوله وجعل يقلبه ويفحصه فبكى وصاح فاخطفته واحتملته وضممته إلى صدري ولطفته حتى ثاب إلى السكون.

ولما جاء الليل وبكى زعم آدم أن من الحماقه أن أسجن هذا الحيوان معنا، وأنه إنما يبكي ويصيح ويُخرج هذه الأصوات المنكرة؛ لأنه يريد أن يعود إلى جماعته، وهم بأن يلقيه خارج الكوخ فعدوت وراءه وصددته. فقال آدم إنه لا يفهم سلوكي هذا، وإنه لم يَألف مني هذه العناية بالحيوانات الأخرى.

من مذكرات آدم

«لقد تغيّرت حواء حتى لأكاد أنكرها، مذ وجدت هذا الحيوان الغريب الذي حفيت قدماي على غير جدوى في البحث عن واحد آخر من مثله، فهي لا تخرج الآن للصيد أو للاحتطاب ولا تكاد تُعنى حتى بإعداد الطعام. ولا تخطو خطوة إلا وهذا الحيوان الغريب مضموم إلى صدرها أو محمول على كتفها، وهو لا يكلفنا شيئاً؛ لأنه لا يأكل ولا يشرب، وهذا أغرب ما فيه. وأحسب حواء قد جُنَّتْ فإنها لا تفتأ من حين إلى حين تُلقِمه ثديها فيعكف عليه بفمه الفارغ كأنه يأكل ولا شيء هناك؛ فليس أجن منها سواه! وما أغرب منظرها وهي تداعبه وتناجيه وتوهمه أنها تعض أنامله فيضحك، ولم أرَ قبل هذا حيواناً يضحك. لقد حَيَّرني جداً هذا المخلوق العجيب الذي تسميه حواء «قابيل» والذي لا أدري ماذا هو؟ فهو ليس مناً إذا كان لا يمشي مثلنا ولا يتكلم، وليس من الطير فما له أجنحة ثم هو لا ينهض فكيف بالطير، وليس من الحيوان فإن جلده أملس لا شعر عليه وليس له ذيل، وأكثر ما أراه مستلقياً على ظهره ورافعاً رجليه في الهواء، ولست أفهم لغته، ولكن حواء تزعم أنها تفهمها وتجيبه إلى ما يطلب فيكف عن الصياح ويضحك وينام، أما أنا فقد تقطع نومي مذ جاءتنا بهذا اللغز، سأعافلها يوماً وأسرقه وألقيه في الغابة أو في الغدير فإنني في شك منه عظيم.»

بعد بضعة شهور، لا أزال عاجزاً عن فهم هذا اللغز الذي كُنَّا في غنى عنه، والذي يشرد عني النوم، ولم أستطع أن أسرقه؛ لأن حواء لا تتركه لحظة وقد نما بسرعة فصار خمسة أضعاف ما كان عليه لما جاءنا، وكان في أول الأمر لا ينفك مستلقياً على ظهره، فالآن يحبو على يديه ورجليه، وقد يباغتني وأنا نائم فيضع يده الصغيرة في فمي أو يقبض على أنفي أو يجذبني من لحيتي، ليست حواء وحدها المجنونة فسيلحق بها سواها قريباً، ولقد أشفقت على هذا اللغز وقلت آتية برفيق يؤنسه في وحدته ويسليه في غربته بيننا، فجئتُ بدبِّ صغير ولكنه لم يكد يراه حتى ريع وملأ الدنيا صياحاً فلم أجد بداً من طرد الدب ورده إلى حيث كان.

أي شيء هو؟ هذا ما يحيرني! هو قَطٌّ؟ لا! أو دُبٌّ؟ لا! أو قردٌ؟ ربما، ولكن أين الذيل والشعر؟ سنرى.

بعد شهور أخرى، لا يزال هذا اللغز ينمو وهو الآن يقف على قدميه الخلفيتين ويمشي خطوات ثم يقع، وقد ظهر الشعر في رأسه وهو كشعرنا نحن لولا أنه أنعم وأخف وأقل سواداً وألين ملمساً، وكنت أتوقع أن يظهر له ذيل ولكن خيب أمني. وأقول

الحق: لقد بدأت أخافه فإن هذا النمو الشاذ الذي لا عهد لي به في حيوان آخر يوقع في روعي أنني لم أرَ آخر هذه الحكاية. وما يدرينا غداً ماذا يكون منه؟ وقد رأيت أن الأحزم أن أنام خارج الكوخ من الآن فصاعداً، وأن أدع حواء وحدها معه، وليس هذا من الشهامة والمروءة في شيء، ولكن ماذا أصنع وهي لا تريد أن تفرط فيه ولا ترضى أن تعترض منه دُباً أو قرداً؟ فعليها إذن أن تحتمل وحدها عواقب طيشها وحمافتها.

بعد أربعة شهور، عُدت من الجبل بعد غيبة طويلة فألفيت اللغز يمشي على قدميه مثلنا ويذهب حيث يشاء وحده، وينطق بما يشبه كلامنا فيقول «بابا، ماما، أومبو»، فهل علمته حواء؟ لا أدري، وقد نبتت له أسنان ولم ينبت الذيل. ولما كنت سأعود إلى الجبل غداً فسأشير على حواء بأن تكّمه.

بعد خمسة شهور أخرى، في كل طوافي وتجوالي في الجبال والغابات والأدغال والأودية والسهول لا أعرّ على نداء لهذا اللغز، وحواء تجد في الكوخ — نعم في الكوخ ومن غير أن تتنقل قدماً — لغزاً آخر شبيهاً بالأول من كل الوجوه، فهو من فصيلته ولا ريب، وقد سمّته هايبيل، وحسنًا فعلت، فإن اللغزين شبيهان فما أحقهما بأن يكون اسماهما متقاربين. وقد سرني أنها وجدت للغزها الأول مؤنسًا، فما أشك في أنه كان يألم هذه الوحدة ويحُن إلى قومه.

اقترحت على حواء أن تدع لي اللغز الجديد أجري فيه تجاربي لعلي أهتدي إلى نوعه وأن تجتزي هي بالأول فأبت أن تصغي إليّ، ولم تطق كلامي واحتملتها وخرجت، وتوعدتني بالنزوح عن هذه البقعة من الأرض إذا لم أكف عن التفكير في ذلك. ولست أفهم ذلك من حواء وما أراها إلا جُنّت تمامًا؛ لأنه إذا كان قد ثبت أن هناك أغازًا كثيرة، وكانت هي قد وجدت منها اثنين — وجدتهما وحدها وبلا معين — فماذا يضيرها أن تلقي إليّ بأحدهما وهي لا محالة واجدة غيره في يوم من الأيام قياسًا على ما حدث؟ الحق أن منطق المرأة غريب. ولم أكن أريد إلا أن أفحصه في أوقات الفراغ، فقد خطر لي من حسن تقليده لحواء ولي أيضًا أنه ربما كان نوعًا طريفًا من القرود. ولكن حواء فقدت عقلها، فهي لا تعبا بشيء من هذه الدنيا سواهما، ولا تأتمني عليهما لحظة.

بعد ثمانية شهور، قالت لي حواء اليوم وعينها تلمع إنها «ستضع» واحدًا آخر، ولم أفهم منها قولها أنها «تضع» هذه الألغاز، وهذه الأكاذيب بعض ما يسخطني ويثيرني عليها، ولكنني أحسب المرأة لا تكون امرأة إذا لم تكذب، فسألتهما عن أدراها أنها ستجد لغزًا جديدًا فقالت: بالتجربة. قلت: أية تجربة؟ فمضت بي إلى ركن مظلم

في الكوخ وأسرت إلي بصوت خفيض جداً، كأنما كان هناك أحد يسمعنا: إن اللغز معي الآن. فنهضت مذعوراً وقلت: معك كيف؟ ودُرتُ حولها أنفضها بعيني فلم أجد معها شيئاً. فقالت: إنه في جوفي. فارتعتُ وقلت: أترك يا ... قد أكلتِ أحدهما؟ وتراجعتُ عنها فضحكت ... إن حواء تخيفني. فلن أنام في الكوخ معها بعد اليوم.

بعد بضع سنين، لقد حللنا اللغز وعرفنا أن هذه الخلائق الجديدة بنونا. وهم الآن أربعة: قابيل وهابيل وبنتان. ولنا العذر إذا كان الأمر قد خفي علينا في مبدئه، فما سبق لنا بمثل ذلك عهد. وهابيل صبي وديع رضي الخلق وهو أحب إلينا من أخيه قابيل الذي أوتر أن يبقى كما كان يوم جاءنا دَبًّا أو قرَدًا أو غير ذلك مما توهمته في صدر حدائته. وقد أدركت الآن أن حواء أصدق مني فراسة وأذكى غريزة وقد زاد حبي لها وعطفي عليها. هي التي تنسيني الجنة وماذا كانت الجنة قبل أن أعرفها.

عاطفة الأبوة

١

قلت مرة لزميل من المدرسين الإنجليز، رُزق غلامًا: أتحب غلامك هذا؟ فأدهشه سؤاله ولم يخفِ تعجُّبه له، وتوهَّم بادئ الأمر أنني أتكلف التشكك، فلما بدا لي منه هذا الريب في صدق سريرتي سألته: أتظن أن فقد الأبناء في طفولتهم يكون كفقدهم بعد أن يرشدوا، ويدخلوا في مداخل الرجال من حيث وقع ذلك في النفس؟ قال: كلاً. وإن كنت والله الحمد لم أجرب هذا أو ذاك.

قلت: وكيف تعلل ذلك؟

فأطرق لحظة ثم قال؟ إنني أرُدُّ الفرق بين الوقعين إلى مبلغ الجهد والعناء في تنشئة الطفل ورعايته حتى يكبر، فعلى قدر ما نبذل في تربيته يكون حرصنا عليه وضمننا به وشعورنا بالخسارة حين نفقده.

قلت: إنكم معشر الإنجليز هكذا دائماً، حتى العواطف تقدرونها بالأرقام، على أن تعليك — مع ذلك — صحيح إلى مدى كبير، وإن كنت لا أشك أنه كان يسعك أن تهتدي إلى عبارة أخرى غير هذه. والآن سؤال آخر: هبك رُزقت غلامًا ورحلت عن بيتك زماناً ثم عدتَ وقد شبَّ الطفل وترعرع وأصبح فتىً يافعاً، أيكون شعورك نحوه كشعورك لو أنك كنت إلى جانبه، تراه في كل ساعة وتراقب نموه وتفتح عقله؟ قال: كلاً.

قلت: أتظن أن من الضروري لنمو الشعور بالأبوة أن يكون لجهدك الذي تبذله مظهر ماديٍّ، كأن تتولى أنت مثلاً الإنفاق عليه والسهر على تعليمه ومراقبة تدريبيه بنفسك إلى آخر ذلك مما يجري هذا المجرى؟

قال: وكيف يكون الجهد غير ذلك؟

قلت: ألا يكفي مثلاً أن يكون جهد «عاطفة» يحركها ويثيرها قربها منك؟

قال: وما أشك في أن هذا يكفي.

قلت: «نستطيع الآن أن نستخلص أن حياة الطفل هي التي تتيح للشعور الأبوي فرصة النمو، وبعبارة أخرى أن للعادة دخلاً لا يُستهان به في قوة هذا الشعور. وليس معنى هذا أن العادة تخلق هذا الشعور خلقاً ولكن معناه، أنه يكون كامناً في النفس فتُظهِره، وضعيفاً فتقوِّيه، وفاتراً فتُكسِّبه الحرارة. والأبوة ماذا هي؟ أليست مظهرًا من مظاهر حُب الذات والرغبة في تخليدها بتكريرها وإعادتها في شخص آخر هو بعضها؟» قال: أحسبها كذلك.

قلت: ولكن التخليد معني، أو إن شئت فقل إنه وهم وخيال تتعلق به النفس وتتعزى عن الفناء الذي تعلم أنه لا محالة مدركها، ولما كان كذلك، فربَّ نفس تكون أطلب له — بطبيعة استعدادها — من نواحٍ أخرى غير الأبوة، وعلى طريقة غير طريقة التكرير والإعادة — إذا صح أن الأبناء صور معادة من الآباء، وهو غير صحيح، فما أظن بك إلا أنك ترى معي أن هذه الإعادة تكون إسرأفاً لا معنى له، وسفهاً لا تسوِّغه حكمة، وأخُلُق بالجيل الواحد من الناس أن يغني عن كل الأجيال التي تتلوه إذا كانت ستجيء مطابقة له غير مختلفة عنه، وما أحق الطبيعة في هذه الحالة بأن يُحجر عليها.

قال: هذا كله صحيح، بل بديهي ...

قلت: أشكر!

قال: عفواً. إنما أردت أن أسأل عن النتيجة؟

قلت: أريد أن أقول إن عاطفة الأبوة قد تكون في بعض النفوس أضعف منها في

البعض الآخر.

قال وهو يبتسم: ما أراك جئت بجديد.

قلت: بل أريد أن أقول إن بعض الناس لا يصلحون أن يكونوا آباء أو بعبارة أخرى أنهم بطبيعة تكوينهم لا يستطيعون أن يخدموا «النوع» من هذا الطريق، وهؤلاء هم الذين نسميهم النوابغ، ونعني بهم طلاب المجد الأدبي أو الحربي أو العلمي، فكأن مساعيهم تستنفد حيويتهم وترُدُّهم غير صالحين لغيرها، ومن هنا ما يلاحظ من عقمهم أو قلة نسلهم أو سرعة انقراضه على خلاف السواد الأعظم من الناس، وهذا السواد هو الذي يُعمِّر الدنيا ويحفظ النوع الإنساني فيها.

والناس أكثرهم لا يفكرون، سألت مرة واحدًا من إخواني: لماذا تحب أبناءك؟ فكان جوابه: إنهم بعضه وقلذة من كبده.
ألم يقل الشاعر:

وإنما أبناؤنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

إلى آخر هذا الهراء الذي يَعْدُبُ في السماع وتأنس إليه النفس وإن كان لا محول وراءه، وقد أردت أن أنبّه صاحبي هذا إلى ما بتعليقه من المآخذ فقلت: وهل أنت آسف على أبنائك الذين أخطأهم التوفيق ولم يتمكنوا من الانحدار إلى هذه الدنيا؟
قال في وجوم: ماذا تعني؟ مَنْ هم؟

قلت: إن الجواب الذي تطلبه يستوجب مني أن أصارحك بحقيقة علمية لا أحسبك تجهلها، فأنا أذكرك بأن الرجل منا ينفث في المرة الواحدة مئات من الملايين من الجراثيم، وكل جرثومة منها كافية لأن تخرج إلى الدنيا طفلاً لو ساعفتها الأحوال وآزرها الحظ، ولكنه قلما يكون هناك أكثر من جرثومة واحدة هي السعيدة الموفقة، وما خلاها يذهب كما يُراق الماء في الصحراء فالإنسان — إذا اعتبر هذه الحقيقة العلمية — يفقد في كل مرة ملايين من الأبناء بقدر ما يضيع سدىً من ملايين الجراثيم، ولولا هذا الاقتصاد في التلقيح لاستطاع فرد واحد أن يعمر لا الكرة الأرضية وحدها، بل مئات من الكرات الأرضية بنسله.

وهذه الجراثيم الضائعة، أو إذا اعتبرت ما كان يمكن أن يكون، هؤلاء الأبناء الذين لم يجيئوا بعضك أيضاً، وهم أفلاكك أو أكبادك كما تقول أو يقول الشاعر، فلماذا لا نراك أو نرى أحداً يأسى على فقدهم وهم بعضك، كما تفرح لسلام تُرزقه، وتحبه لأنه بعضك؟

الحقيقة أن المسألة ليست أن الأب لا يحب أبناءه إلا لأنهم بعضه، فإن غريزة حفظ النوع قد تكفلت بنشوء العاطفة وبدفع الناس إلى طلب النسل، وهي عاطفة يسهل على الرجل — كما لا يسهل على المرأة — أن يحولها إلى مجرى آخر تخرج منه شيئاً مختلفاً جداً، وعاطفة جديدة وإن كانت مولدة من عاطفة الأبوة. وهبها لم تتحول فإن من الميسور أن تنمو وأن تستوفي حظها على التبني، كما هو معروف ومألوف.

على أن الرجل والمرأة ليسا سيئين في هذه العاطفة، وأكثر الفرق بينهما راجع إلى أن غريزة حفظ الذات أقوى في الرجل من غريزة حفظ النوع، أما المرأة فعلى خلاف

ذلك، الغريزة النوعية فيها أقوى من الغريزة الفردية، إذ كانت هي بطبيعة تكوينها، أداة المحافظة على النوع، وليس الرجل سوى عون لها على ذلك، ومن هنا كانت الأمومة وحواشيها أقوى وأبرز من العواطف المنبعثة من الأبوة.

بعد هذا الذي أسلفناه لا نظن القارئ يستغرب أن نقول إن عاطفة الإخاء عادة ليس إلا، وإلّا لا أكثر ولا أقل، وما أحسبها تختلف في حقيقتها عن عاطفة الصداقة، وكل ما في الأمر أن اشتراك المصالح والنشأة الواحدة تجعل الروابط أمتن والأواصر أوثق. وليس أسهل من فسادها ولا أيسر من تفكك عراها إذا وقعت النّبوة بين الأخوين لسبب من الأسباب، فلا مبالغة إذا قلنا إنها عاطفة لا تتميز إلا في الظاهر وإلا من حيث الاعتقاد العام فيها، عن أية عاطفة تنشأ بين اثنين من أبناء آدم. وليس بالنادر ولا من الفلتات أن تؤدي أعاجيب ما تُحدثه الوراثة إلى جعل الأخوين أشد ما يكون اثنان تنافراً، وقلما يفقد الوالدان حُبّ بنيهما أو الولد حُبّ أبويه، ولكن ما أكثر ما يقع من التعادي بين الأخوين ويتباغضان؛ ذلك أن للأبوة أو الأمومة أصلاً تحور إليه ويبقى لها إذا فقدت كل معزز أو مقوّ، ولكن ما بين الأخوين لا يرجع إلى أكثر من المصادقة.

والناس يدركون هذا ويفطنون إليه بالسليقة وإن كانوا قلّ أن يفكروا فيه، فتراهم يطلقون لفظ الإخاء والتآخي على الصداقة، ولا يستكثرون أن يُنزلوا الصديق منزلة الأخ، ولا يحسون أنهم هبطوا بمرتبة الإخاء من أجل ذلك، ولكن الأبوة عندهم وعلى ألسنتهم في كل لغة لها مقامها الذي تنفرد به ومنزلتها المحوطة التي لا تدانيها منزلة. وليس أصدق من فطرة الجماعات ولا أصح أو أدق من تقديرها لهذه الصلات بما تجريه على ألسنتها — عفواً ومن غير تدبّر — من العبارات الواسعة الدلالة العميقة المغزى.

٢

قال لي صاحب قديم خلطته بنفسي زمناً: صحيح هذا؟

قلت: ماذا؟

قال: هذا الذي كتبته عن عاطفة الأبوة.

قلت: وما سؤالك أنت، إنكار هو أم أسلوب جديد في الإعراب عن الموافقة؟

من ذلك أن يتزوج امرأة أبيه؛ لأنها في منزلة الأم، حتى لقد حرّمت الشرائع ذلك، على حين كان المصريون يتزوجون الأخت ولست أذكر هذا إلا على أنه مظهر للشعور الفطري العام الذي تقوم على قاعدته الشرائع والقوانين، وتدور عليه الآداب الصادقة لا التقليدية المتكلفة.

قال صاحبي: هذا صحيح، ولكن ألا ترجع عاطفة الأبوة إلى أكثر من العادة والإلف؟ قلت: من قال إنها عادة ليس إلا؟

إن الشعور الأبوي مرجعه إلى غريزة حفظ النوع كالحُب، وأساسه في الرجل والمرأة واحد، غير أن الرجل أقوى تمثيلاً في حياته الفردية منه للنوعية، أعني بذلك أن غريزة حفظ الذات أقوى فيه من غريزة حفظ النوع، ذلك أنه هو الذي يتولى مكافحة الطبيعة بما فيها من قوى وكائنات من جنسه وغير جنسه، وهو المتكفل بالسعي والذي يتعرض بسبب هذا كله للأخطار، فلا غنى له عن الاحتياط لدفعها بالقوة إذا تهيأ له ذلك، وبالحيله والتدبير وحسن التصرف وما إلى ذلك إذا أعوزته المنة، والحياة ليست باللحمة السائغة فهو محتاج إلى مغالبة الصعاب ومعالجة تذييلها، وهو في كل خطوة يخطوها يصادف ما ينبئ غريزة حفظ الذات أو صيانة النفس، ومن أجل هذا — كما قلت في «حصاد الهشيم» — صارت هذه الغريزة أقوى وأنضج وأسرع تنبهاً وأكثر عملاً؛ لأن حياته تجعل أعماله متصلة بها أكثر من اتصالها بغريزة حفظ النوع، وهو لذلك أحسُّ بها وأسرع تأثراً من ناحيتها، ومن هنا كانت الأنانية في الرجل أظهر وأقوى. والعامّة يلاحظون ذلك ويفطنون إليه ويذهبون فيما وضعوه من أمثالهم إلى أن الأم أحنى على طفلها من أبيه. وقد ترى الرجل يداعب طفله برهة أو ساعة، ولكنك قلَّ أن تجد رجلاً يقوى على ما تقوى عليه المرأة من ملازمة الطفل، والمثابرة على مداعبته والصبر على التحدث إليه، ومن توهم فهُم ما لعله يرتسم على صفحة وجهه من الحركات أو يَبْد عنه من الأصوات، واحتمال ذلك وما هو أشق منه ساعة بعد أخرى، ويوماً بعد يوم، وشهراً تلو شهر، وحولاً عقب حول.

أما المرأة فحُلقت للنوع قبل أن تُخلق لنفسها، وهي في سبيل النوع تحمل وتضع وتتعرض للموت الوَحَى ساعة يجيئها المخاض. وتكوين جسمها شاهد بأنها مجعولة أداة للنسل ووسيلة لحفظ النوع، ففي جوفها مكان مُعد للجنين تحمله فيه تسعة أشهر كوامل، ولها ثديان يدرّان اللبن، وجسمها مرگّب بحيث يتحول الغذاء إلى لبن تُرضعه طفلها وتغذيه به حولاً كاملاً على الأقل.

فالعاطفة موجودة، ومردّها عند الرجل والمرأة إلى هذه الغريزة النوعية، ولكن اختلاف الرجل والمرأة من حيث التكوين وما أعدتهما الطبيعة له، ومن حيث طبيعة الحياة يجعل هذه العاطفة أقوى في المرأة وأنضح منها في الرجل، ثم تجيء الصور الذهنية التي تحصل لكل منهما فتزيد هذه العاطفة وتضرمها. وهذه الصور عند المرأة حشد حاشد وبحر زاخر لا آخر له ولا نهاية، فهي لا يسعها إلا أن تذكر ما عانت في شهور الحمل وما جرّبت في أطواره وأحست من حركات الجنين في جوفها، ثم ما كابدت من عذاب الوضع، وكم ألف ألف صورة تحصل في ذهنها بعد ذلك، مذ كان طفلها وليدًا إلى أن يشبّ عن الطوق ويدخل مداخل الرجال أو النساء، وكل حركة ومصة من ثديها وابتسامه ونظرة وتعبيسة وعولة وصوت ونهضة وعثرة وخطوة، كل ذلك منقوش على صفحة قلبها مرتسم على لوح صدرها مذخور في رأسها، وجوؤها حافل بهذا الطفل، وحياتها كلها دائرة عليه غير منفصلة عنه، وماضيها كان تمهيدًا له، وحاضرها مستغرق فيه، ومستقبلها آمال منوطة به، وأخلق بهذا أن يعيننا على تصور روعة الأمومة وعمقها وسعتها وانطواء كل أحساس فيها، وتسرب كل شعور إليها ومنها. ولما كان نصيب الرجل من هذه الصور التي تحصل في نفس المرأة أقل وأضال، فلا عجب أن يكون غذاء العاطفة الأبوية أطفه جدًّا مما يغذي عاطفة الأمومة. وهل الحياة إلا الصور التي تحصل في الذهن؟

يقول ابن الرومي في رثاء ابنه:

<p>فلله كيف اختار واسطة العقدي وأنست من أفعاله آية الرشدي بعيدًا على قرب قريبًا على بُعد وأخلفت الآمال ما كان من وعد فلم ينس عهد المهد إذ ضمّ في اللحد إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد ويذوي كما يذوي القضيبي من الرندي</p>	<p>توخى جمام الموت أوسط صبيتي على حين شمت الخير من لمحاته طواه الردى عني فأضحى مزاره لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها لقد قلّ بين المهد واللحد لبثه ألح عليه النزف حتى أحاله وظلّ على الأيدي تساقط نفسه</p>
---	---

إلى أن يقول:

وإني، وإن مُتَّعتُ بابنيَّ بعده
وأولادنا مثلُ الجوارحِ أيها
لكلِّ مكانٍ لا يسُدُّ اختلاله
هل العينُ بعد السمعِ تكفي مكانه
أريحانةَ العَيْنَيْنِ والأنفِ والحشا
كأني ما استمتعتُ منك بضمَّةٍ
محمَّدُ ما شيءٌ نُوهَمُ سلوَّةُ
أرى أخويكَ الباقِيَيْنِ كليهما
إذا لعبا في ملعبٍ لك لدَّعا
فما فيهما لي سلوَّةُ بل حَزَازةُ

لذَكرُهُ ما حنَّتِ النَّيبُ في نجدِ
فقدناه كان الفاجعِ البَيِّنُ الفَقْدِ
مكانُ أخيه في جَدْوَعٍ ولا جَلِدِ
أم السمعُ بعد العينِ يهدي كما تهدي
ألا ليت شعري هل تغيَّرتَ من عهدي؟
ولا شَمَّةٌ في ملعبٍ لك أو مهدِ
لقلبي إلا زاد قلبي من الوجدِ
يكونان للأحزانِ أورى من الزنْدِ
فؤادي بمثل النارِ من غير ما قصدِ
يَهيجانها دُوني وأشقى بها وحدي

ولم نورد القصيدة كلها وإن كانت أبياتها جميعاً من هذا الطبق الرفيع، وإنما اقتصرنا على ما فيه تمثيل لما نريد، والذي نريد هو أن «نمو» عاطفة الأبوة أو الأمومة رهن بالصورة الحاصلة في الذهن وبجهد النفس وبالأمل الناشئ. وفي هذه الأبيات المتخيرة صور عدة — صور قبلات يذكر الأب حلاوتها، وشمات لا تزال تتضوع إلى أنفه، وضمات لا يفتأ يحسها، وملعب للطفل وعين أبيه ترعاه وتلاحظه، وذكريات شتى يهيجها الغلامان اللذان أخطأهما الموت، بل كل شيء يهيج الشاعر إلى التذكر، وللمهد صورة وللد أخرى، ولما كان للكمال فيه صور شتى ولما صار إليه في التراب صور غيرها، يتخيلها الشاعر ويتساءل عنها مشفقاً موجعاً فيقول:

... ..
... ..
... ..
... ..
ألا ليت شعري هل تغيَّرتَ عن عهدي

ولصحته صور محببة ولسقامه وذبوله وما أصابه من النزف وذواه على الأيدي، صور تكوي الفؤاد وتلعج القلب، وللحماته وبشائرها وأفعاله وما كان يأنس منها، وللرجاء فيه والفرح به وانتظار ما سيكون عليه ويصير إليه، لكل ذلك صورته العالقة بالنفس المتشبثة بالضمير، وهكذا إلى غير نهاية. وأين تكون نهاية هذا العالم الحافل بالذكريات المحشودة الزمر؟ وما ظنك بالأم وعالمها أحفل، وزمر ذكرياتها أحشد!

والذين تتحول هذه العاطفة الأبوية في نفوسهم إلى مجرى آخر، أعني الذين يتبنون الآداب أو الفنون أو العلوم أو ما شاكل ذلك، يستغرقهم حُب ما انصرفوا إليه وتخلوا له، ويدري الناس مبلغ استغراق ذلك لنفوسهم واستيلائه على هواهم فيعجبون ويعدونه شذوذًا ويحصونه عليهم، ولو أنهم فكَّروا في أنهم اعتاضوا من الأبناء هذا الذي شغفوا به، وأنها هي عاطفة الأبوة في صورة أخرى ومظهر جديد، لما بدا لهم في أمرهم وجه غرابة أو شذوذ، ومن الذي يستغرب من الأب حُب بنيه ووقف حياته عليهم وإفراغ جهده في سبيلهم وقصر سعيه على خدماتهم؟ لا أحد! بل هذا هو المعقول، فمِمَّ يدهشون ويعجبون حين تلبس هذه العاطفة ثوبًا آخر أو تندفق في مجرى جديد أو تتخذ صورة غير المألوفة؟

كيف كنت عفريتًا من الجن

كان ذلك وأنا فتى يافع أسوم كل سرح، وأنهب بكل دلو، ولا أفكر في غير الساعة التي أكون فيها، ولا أبغي إلا أن أستوفي حظي في الحياة، وأن أستوثق من أن كرعتي منها راوية. وفي ليلة من ليالي الصيف الحميدة، ثنَّبت الخطأ إلى البيت — وكان في حي «الصليبة» — بعد أن قضيت وطري من شراب وسماع، فلما بلغته ووقفت على عتبته، ذكرت أن ليس به أحد سوى جدتي التي أوفت على التسعين، وأن المفتاح ليس معي، فقلت لنفسي «أليق أن أزعج الجدة وهي تقوم مجهدة ولا تسير إلا إلى جانب الحيطان لتضع يدها عليها وتسند نفسها؟ كلاً، أولى بي أن أدعها مستريحة وأن ألحق ببقية الأسرة — أُمِّي وأخي — والجو رائق والمشى منعش.»

وأوليت الباب ظهري وانصرفت. ولم يكن الطريق إلى الإمام، في تلك الأيام معبداً، ولا ترام هنا ولا نور، فليس طريق بأحسن أو أثر من طريق، فاخترت أقصر مسلك وهو الذي يمر بمسجد «السيدة نفيسة» ويخترق المقابر المبعثرة وراءه، ويتصل بالطريق العام المطروق عند آخره ومضيت أخط فيه، وأتخبط أيضاً؛ لأن كثرة المقابر وانتثارها وتزاحمها تُضِلُّ ولا سيما في الظلام، غير أنني لم أكرث لذلك ولا فكرت فيه، وفوَّضت الأمر لرجلي تَدْبَان حيث ألفتا أن تَدْبَا في أوقات شتَّى من النهار والليل، وانطلقت أفكر فيما كنت فيه، وأردد فيما راقني سماعه وأرَّج ما شجاني من الأنغام، وأعيتني «مقطوعة» وأحسست أن المشى لا يعينني على ضبط الصوت فيها وإخراجها كما ينبغي، فوفقت وأسندت ظهري إلى قبر وذهبت أغني، وهي صورة لا تزال ماثلة بذهني إلى هذه الساعة وإن كنت في ليلتي تلك لم ألتفت إليها، ولا جعلت بالي لها، وكيف يعبأ شاب تَمَلُّ بالقبور وما انطبقت عليه؟! وعلى أنه متى كان المرء في صدر العمر يفكر في الموت على أنه حقيقة قريبة لا مهرب منها ولا معدى عن مواجهتها؟ إن الإنسان منَّا ينظر في شبابه إلى الموت

— حين يجريه شيءٌ بباله — كما ينظر إلى شيء وراء الجبل، لا يفهمه ولا يدركه ولا يعرف كُنْهه ولا يتصوره إلا على أنه المجهول البعيد. ويشغله صعود الجبل وما يلقاه على هذا الجانب منه، وما يفتنه وهو يتوغل حتى يدنو من القمة، فتتزامح في رأسه الخواطر والتكهنات عما وراء هذه الرُّبَاوة التي قضى الشطر الجميل من حياته في الصعود إليها، ويَحْضُرُ إلى ذهنه شيئاً فشيئاً معنى الموت ومُؤداه، ثم يستبد بخاطره ولا يخاطره، ويكون الإصعاد قد هدَّ القوى كثيراً وأنهك الجسم فيتبدل إلى حد كبير من فرط التعب، ويواجه فكرة الموت في شيء من الذهول يذهب برهبة الفناء ويسلبه الفزع.

وقفت إذن أُعْنِي على القبر وأرسل الصوت في ظلمة الليل غير حافل بما حوли من القبور المتزامحة أو عابئ بما تحتي من الرُّفَات الدَّفين. رفات قوم كانوا مثلي في مِيعَة العمر وعُنْفوان الحياة وجهل الشباب يمرحون ويُعْنُون ولا يفكِّرون فيما يصير إليه كل حي من الفناء الشامل. وما فتئتُ على هذه الساعة أعجب لذهولي إذ ذاك عن الموت وأنا في وسط لجتة الراكدة. إن الشباب رحمة، وكيف كانت الحياة تكون لو أن فكرة الموت كانت تخامر النفس من المهدي إلى اللحد؟ كان حرياً بها إذن ألا تُطاق وكان خليقاً بالمرء أن يكفَّ عن كل سعي، وأن ينفضَّ يده من كل جهد يبذله في سبيل أية غاية بالغة ما بلغت من السمو والفتنة، وما خير الحياة أو جدوى المساعي أو عزاء الغايات وهذه الهاوية مفتوحة لابتلاع الإنسان؟ إن الموت هو اليأس، ومن رحمة الله بالخلق أن الحياة أقوى، وأن إحساس المرء بها أعظم، وأن وقعها في نفسه أشفع وأن استيلاءها عليه أتم، والشباب قوة دافقة، والحياة معه تكون جديدة، فلها كل حلاوة الجِدَّة وسحرها، ولكنها في الكهولة تكون شيئاً مألوفاً وتجارب معهودة معادة، ومن هنا لا يحسُّ الإنسان بالفزع حين يخطر له أنه سيكُفَّ عن هذه الحياة التي ظل يذوقها حتى كاد يحتويها، ولولا أن الحياة عادةٌ ككل شيء في الدنيا، وأن المرء يألف أن يعيش وأن يتنفس الهواء لما استثقل أن يموت وأن ينقطع عن الدنيا، فالعادة والخيال الذي ينمو مع العمر، والإحساس بالنفس، هذا هو الذي يجعل الموت صعباً وتجعل لمفارقة الحياة أمأً. وعلى خلاف ذلك الأطفال والحيوان.

وبينما أنا واقف أُعْنِي لمحت شبهاً مقبلاً ولم أشكَّ في أنه رجل، فما تجرؤ المرأة — إلا في الندرة القليلة — أن تسير بين القبور في الليل فكففت عن الغناء وساورتني الشكوك. وخطر لي أن القادم قد يكون لصاً، وقد لا يكون ذلك، ولكن وحشة المكان وسكون الليل قد يغريانه بالتلصص. غير أنني طمأنت نفسي، وقلت — وماذا أخشى وليس

كيف كنتُ عفريتاً من الجن

معي شيء يستحق السرقة؟ إن هي إلا بضعة قروش لا تغنيه إذا فاز بها، ولا تفقرني إذا خسرتها، وأنا بعدُ خفيف الوزن سريع العدو وعارف بالمداخل والمخارج، وما أحسبه يستطيع أن يدركني إذا أطلقت ساقلي للريح، فلا خوف من القادم، وليكن من يشاء، وليس من الحكمة أن أدع الخوف يشيع في نفسي فتظهر دلائله في صوتي وحركاتي، فيُطمع ذلك فيَّ إن كان رجلَ سوء، على أن الحزامة مع ذلك أن أتوارى خلف قبر منزوٍ، لأراه دون أن يراني، ولا أعرف ماذا هو، وليسر أمامي وأكون أنا وراءه فذلك أدعى إلى الاطمئنان.

ودنا القادم فإذا هو شيخ كهل، أبيض اللحية وفي يده سُبحة، وهو يذكر الله أو يتلو من القرآن أو لا أدري ماذا كان يتمتم، وبأي كلام كان يحرك شفتيه، فغاضني أن هذا الشيخ الضعيف قد أفزعني، وكأنما تحركت نفسي للانتقام منه، فعاقلته في بعض الطريق وظهرت له فجأة من وراء قبر، فريح المسكين وكاد يتهافت إلى الأرض، وأسعدت فتواري وُعدتُ أدراجي مسافة قبر أو قبرين — أي بضعة أمتار — وكان الرجل يتلفت حوله فلا يبصر شيئاً ولا يسمع حساً فشد بعضه إلى بعض وتقل يمناً ويسرة ورفع صوته باستعاذة من كل شيطان رجيم، واستأنف التلاوة والسير، وأنا أتسلل بين القبور وراءه، وصارت خطاه أسرع، فأدركت أن الخوف لا يزال في قلبه، ووثبت إلى جانبه مرة أخرى، ومددت يدي بخفة فجذبت شعر لحيته فصرخ واختفيت، ودُرت من وراء القبور فسبقته وأنا أكاد أجنُّ من السرور والجذل، وصدري يكاد ينفجر بالضحك المكتوم، وصبرت حتى مرَّ بي فدفعت يدي إلى خصره ودغدغته، فأقسم لقد وثب الرجل عن الأرض كأنما كنت قد غرزت في جنبه سيفاً أو حديدًا محمياً ورأيت فرصتي سانحة؛ فقد بلغ الاضطراب بالرجل غايته، وصار يخلط في كلامه كالذي لا يعي ما يقول، فكان يصيح «أعوذ بالله من ...» من فرط ما أصابه من الفرع. وجثته من ورائه ورفعت صوتي بالزمزمة وبكل ما أستطيع إخراجه من الأصوات المنكرة فانطلق الرجل يعدو!

وهكذا أفلت مني ... وكنت قد تعبت فلم أحاول أن ألحق به، فمشيت متمهلاً ونفضت التراب عن ثيابي وخرجت إلى الطريق العام المطروق وبعد قليل — ربع ساعة أو نحو ذلك — بلغت مسجد الإمام الشافعي، وكان المؤذن يمهد للأذان بغناء سخي، والناس يخرجون إلى المسجد ليتهيئوا لصلاة الفجر، فرأيت جماعة يحيطون بصاحبي الشيخ وهو يقول لهم: «وكان كالقطن الأسود، يثب على كتفي ويلحس لي خدي وينفذ من بين رجلي، ويدخل بين الجبة والقفطان، وكنت أستعيز بالله فنتشق الأرض ويغيب

في جوفها، ولكنه كان يعود فيظهر لي أحياناً في صورة الدُّبَّة راکضاً على يديه ورجليه، وأحياناً أخرى في مثل كفن الميت خارجاً من تحت أحجار القبر، وقد تمزق اللثام عن وجهه وبرزت عيناه تقدحان بالشرر فأتلو ما تيسر من القرآن فيلتفُّ الوجه في خِرقَة ويهوي الجسم إلى جَدَثه. ولست أنسى ما حييت أسنانه! لقد كانت كالجمرات لامعة حمراء وكانت تضطرب في فمه وتحقق كالنجوم والحمد لله الذي أنجاني من عناقه ...
فقال أحدهم: «أتراه همَّ أن يعانقك؟»

فقال الشيخ: «همَّ؟ همَّ يعني ماذا؟ أقول لك: إنه مدَّ ذراعين كأنهما مئذنتين ودنا مني ليطوقني بهما، ولمع الشوك الذي في صدره كأسنان الحراب فلولا أن ألهمني الله أن أقرأ آية الكرسي لكنت أنا الذي مُتُّ.»
قال آخر: وهل مات؟ غريب!

فقال الشيخ: «لقد احترق، أحرقتَه آية الكرسي. ثم استأنفت السير حتى بلغت هذا الطريق عند ...»

ودار بوجهه ليشير إلى المكان الذي نفذ منه إلى الطريق العام فأبصرني وراءه فاضطرب وصاح وهو يشير إليَّ بيديه: «أهه. أهه. أهه ... أهو ...»
فلم يفهم أحد سواي معنى صيحته وإشارته، ورددت الضحك الذي ازدحم في حلقي والتفتُّ ورائي، كأنما أريد أن أنظر إلى حيث يشير، وكان الرجل يتراجع ويلصق بالناس فسأله بعضهم: «أين؟ إننا لا نرى شيئاً!»
فمسح الشيخ وجهه بكفه وفاء إلى الهدوء وقال: «غريب! غريب! إن هذا الأفندي يشبهه جداً.»

فلم أرَ مانعاً من الضحك وقلت: «أترى لي وجه عفریت؟»
وكان بين الواقفين رجل أعرفه نكياً خبيثاً ويظهر أن الشك خالجه في الحكاية أو أنه فطن إلى بعض الحقيقة فقال لي: «اسمع. من أين جئت؟»
قلت، وقد أدركت ما يرمي إليه: «جئت من هذا الطريق.»
وكان هذا كذباً أو بعض الحقيقة. ولكنني خفتُ أن يجزَّ الصدق عليَّ الفضيحة. فعاد يسأل: «هل جئت من السيدة نفيسة أو من القلعة.»

قلت: «من القلعة ولا شك. ومن الذي يجروء أن يمشي بين القبور؟» فتمتم شيئاً لم أسمعُه ومضى عني ونجوت.

وهكذا عرفت أنني كنت في ليلتي عفریتاً من الجن!

رجل ساذج

كان لنا - ونحن شُبَّان - رجل ساذج لم يعرف سوانا. كأنما قد هبط علينا من السماء. وكان الواحد منا يذكر معارفه أو يصف القرية التي هو منها، أو يقص علينا مغامراته، أو يحدثنا بمعاشقه، ويعرض ما عسى أن يكون محتفظاً به من مثل خصلة شعر أو مندبل أو نحو ذلك، وهو واجم كئيب لا يفتح فمه. وكان يخشى ركوب الماء ويجزع من اضطراب الزورق على متنه، ولا يزال ينتقل من جانب كلما مال، ولقد اضطررنا مرة أن نشده إلى سارية الزورق لنستريح من قلقه.

وأنشدته مرة قصيدة ابن الرومي التي يصف فيها ما لقي في البر والبحر من التبايح والمخاوف. فلما بلغت قوله:

ولم لا ولو ألقيتُ فيه وصخرةً	لوافيتُ منه القعرَ أول راسبٍ؟
ولم أتعلَّم قط من ذي سباحةٍ	سوى الغوصِ، والمضعوفِ غيرِ مغالبِ
وأيسر إشفاقِي من الماء أنني	أمرُّ به في الكوز مرَّ المُجانِبِ
وأخشى الردى منه على كل شارِبِ	فكيف بأمنيهِ على مر راكِبِ؟

صَفَّق وتحمَّس وقال: إن هذا «رجل عاقل»، وبعد أيام انتحى بي ناحية وسألني أتعرف ابن الرومي؟ فلم أعجب لسؤاله وقلت: «نعم». قال: «أرجو منك أن تعرِّفني به». فوعده أن أفعل. وشاورت إخواني كيف أصنع؟ ولما اتفقنا، قدمته إلى شيخ وقور كَثَّ اللحية إلا أنه أحمق سريع الغضب وفي وسع القارئ أن يتصور ما وقع. وبحسبي أن أقول: إن صاحبنا خرج من مجلسه وقد أصابته عكازة الشيخ على رأسه وركبته، وكانت إصابة الركبة أوجع فظل يظلع أياماً. وسألته بعدها عن ابن الرومي كيف وجدته؟ فكاد

الدمع يطفر من عينه وقال في سذاجة محببة إلا أنها مغرية: «الحق عليّ. إن التهجم على كبار الناس سوء أدب...»

ولست أنسى ما حبيت حادثة أردنا أن نركبه بالدعابة فيها، فأفضت إلى مأساة أو ما هو في حكمها. ذلك أننا أوهمناه أن فتاة رومية تعمل في «بار» شهير تحبه، وألحنا عليه بذلك حتى صدّق، وكنا نجيبه بقليل من الفستق أو الشكولاتة ونزعم ذلك هدية منها إليه، وكان هو حبيياً يخجل حتى من مخاطبة الأعراب من الرجال فكيف النساء! فجعل يغشى هذا «البار» في الساعة التي يكون على الفتاة أن تجلس فيها إلى «الكيس» ويجلس بحيث يراها ولكن على بُعد، فندعه أحياناً، وأحياناً أخرى نلحق به ونثني على جمالها وتننفس في وصف مفاتنها، فيشرق وجهه وتومض عيناه، كأنما يحمد منا الثناء على حسن اختياره! ونروح نسأله: ألا ترى كيف تغمز بعينيهما؟ أليس من الواجب أن تبادلها غمزة عين بغمزة عين؟ فيفعل المسكين ونجاهد نحن أن نخترع سبباً لما ننفجر به من الضحك. وما زلنا نحته على استعمال إشارات الحب حتى صار يدخل البار ومعه طاقة شتّى من الورود ما بين حمراء رمز الحب المتقدم، وبيضاء عنوان الطهر والعفاف، وصفراء للدلالة على ما أصاره إليه السهر والبكاء واللهفة من ذبول لونه، فيجلس ويشعر يخاطبها بهذه اللغة الدقيقة، حتى إذا فرغ من هذا المعجم استعمل المناديل يضعها على فمه، أو يكفكف بها الدمع الموهوم أو يفكر ما بين أصابعه. ولم يعد يبالينا أو يحفل بغيرنا من الناس، فقد اضطمرت نفسه ولعجه حُب هذه الفتاة.

والحق أقول: إننا أسفنا لما تبيننا ما صار إليه الأمر، ولكننا لم نستطع أن نثنيه عن هذيان قلبه، وكان كما قلت ساذجاً جداً حبيياً إلى درجة تفسد الحياة وتحيل الانتفاع بها من المستحيلات، ولكن الحب خلق شخصاً جديداً وأسعفت السذاجة الحب وأعانتته على الاستبداد بنفسه، وما راعني يوماً إلا هذا المسكين يعود إليّ ويقول: «هنّئي.»

قلت، وقد طاف برأسي أن المستحيل قد وقع: «بأي شيء؟»

قال: «لقد خطبتُها!»

قلت، ولم أستطع أن أخفي دهشتي: «خطبتها؟ أنت؟»

قال: «نعم، ألسْتُ أحبُّها؟!»

فلم أدرِ أوهنّته أم أرثي له؟ وخرجتُ من هذه الحيرة باجتناح الاثنين جميعاً

وسألته: «ومتى الزواج إن شاء الله؟»

فطال وجهه فجأة وحاول أن يبتسم، ولكنه لم يوفّق إلا إلى جعل وجهه مفرعاً وقال: لن أتزوجها. وكأنما أحس أن الأمر يحتاج إلى إيضاح، فزاد على ذلك «أعني أنني أظن خيراً لي ولها ألا أتزوجها.»

فلم أرني زدتُ بإيضاحه إلا حيرة فصحتُ به بلهجة قاسية: «إنك مغفل.» فأدهشني أن تنبسط أسارير وجهه وأن يقول: «نعم أنا مغفل ولم أكن قط أجهل ذلك. وأنت تعلم أنني أحبها وقد خاطبتها في الزواج. فكانت كريمة جداً مؤدبة جداً. لم ترفض ولكنها لم تقبل أيضاً. والحق أقول يا صاحبي. لم يسعني إلا أن أصارحها بأني ... كما تعلم مغفل، وأنها تكون أسعد لو تزوجت رجلاً ... رجلاً ... غير مغفل ... يجب — ما دمتُ أحبها — أن أقدم خيراً على رغبتني. أليس كذلك؟ إنَّ من حقها عليّ وواجبي نحوها أن أراعي مصلحتها ... قل لي أليس هذا خيراً؟»

فلم أقل شيئاً ومضيتُ عنه لا ساخطاً ولا ناقماً، ولكن فائض النفس جائش الصدر وماذا عسى أن أقول لهذا المسكين الطيب القلب؟ ولم نضحك بعدها منه أبداً.

ابن البلد

البلدُ القاهرةُ أو مصرُ — كما كانت، وكما لا تزال تُسمَّى هذه العاصمةُ — أو طائفةٌ من الأحياء هي الواقعة بين العباسية والسيدة زينب، وابنُها شخصيَّةٌ شاع فيها الفناءُ علُوًّا وسُفلاً، وعفت عليها المدنيةُ فلا يكاد المرء يلتقي بها في هذا العصر، وما أسرع ما تداعت الأسوار وطغى عُباب الحياة! قبل عشرين سنةً فقط كنتُ ترى ابن البلد هذا «مستفيضاً» وتلقاه في حيثما تكون ولا تخطئه عينك وهي تدور بلحظها، فهو رجل دنياه مصر أو تلك الأحياء القديمة منها، لا يعرف غيرها ولا يكاد يدري أن فوق ظهر الأرض سواها، وهبُّه يدري فما أقل ما يعبأُ بذلك أو يحفله، والزمن عنده اللحظة التي يكون فيها، وهو ذكي إلا أنه جاهل، وظريف سوى أنه مغرور، وحيٌّ ولكنه لا يحيا إلا بحراسة، تدور الدنيا حوله على محورها أو على قرن الثور الذي يحملها ويدور رأسه معها ولكنه لا يعرف ولا يرى شيئاً ولا يسأل عن شيء ولا يكتثر لشيء ويحتقر الريف لأنه يجهله، ويزدري المدنية لأنه لم يألُفها، ويعتز بنفسه ويستضخم أمرها؛ لأنه سهر الليالي وأحيائها بالغناء والشراب والعريضة، وهو مثال الرضا عن النفس والجود الذي يخلفه هذا الرضا، وإذا كان يرى كل شيء من قريب فما من شيء يدعوهُ إلى العجب أو يبتعث الرغبة في الاستطلاع، وكل إحساس له يصل إليه عن طريق الفكاهة، وأشد ما يبغض أن يضطر إلى الجَدِّ والوقار، وليس في نفسه محل للاعتراف بالجميل، والأمر عنده مجاملة متبادلة أو حق له أن يجيبه وعليك أن تؤديه، هو المثل الأعلى لنفسه — أو لعله جارٌّ سابغ أو ثامن — فليس لغير نفسه احترام ولا مطمح له إلا أن يظل قادراً على التحفظ بمظهره، فلا عناية له بالسياسة أو شئون الحكم، وبحسبه من العلم بالحكومة ومهمَّاتها أن يرى مواكب رجالاتها، ومن التطلع إليها أن يتصور نفسه راكباً مركبة المحافظ أو أن يكون ممن يحظون بالدخول على «رياض باشا».

يفتح عينه على الدنيا كل يوم قبيل الظهر، فتُنحى الستائر عن النوافذ ويُؤذن لنور النهار أن يدخل، وبعد أن يقضي ما يشاء من الساعات التي تأتي إلا أن تكرر في التمطي والتثاؤب وتناول الطعام والقهوة المرة مُذاباً فيها العنبر، يقوم إلى ثيابه فينتقي منها جُبة وقفطاناً منسجمين متجاوبين ثم يلفُ العمامة — ولفُّها مهمة شاقة قد يستغرق بقية النهار إلى العصر — ثم ينزل إلى المنظرة ويتلبث بها ريثما يشرب القهوة ويشد أعصابه، ثم يخرج إلى دكان بدال أو حلاق أو عطار أو غير هؤلاء، ويتوafى الرفاق وتُروى أنباء السهرات. ويسأل السائلون عن «عبده» أو «عثمان» أين يغني الليلة؟ ويتفق الإخوان على مكان يجتمعون فيه وشرابٍ يجلسون إليه. ثم يتحاملون بعد أن يقضوا وطراً من النهار إلى المغنى ولعلهم غير مدعويين فيظلون إلى طلوع الشمس في آهات صاحبة وضوءاء تُرجع ما بقي من الرأس وتزلزل الكيان.

ومجالس أبناء البلد نكاتٌ خشنة وضحك مقرقع. وأعذب ما يكون طعم الحياة في أفواههم حين يركبون صاحباً لهم بدعاية عملية. أعرف واحداً من أظرف أبناء البلد وأكرمهم وأرقهم حاشية لا يرضى عن نفسه إلا إذا استطاع أن يوقع واحداً ممن يسهل التماجن عليهم في مأزق أو يزج به في ورطة. وكان يستتقل ظل واحد من حراس المقابر. وكان هذا لا يفتأ يغشى مجلسه وينعص عليه لذاته البريئة بتذكيره بالموت وإحضاره إلى ذهنه. فأراد أن ينفية عن هذا المجلس فأوعز إلى خادم فاستأجر هذا مُكاريًا وبعثه برسالة إلى صاحبنا الحارس مكتوبة على لسان تاجر معروف، والدته مريضة يدعوه فيها إلى الحضور إليه بأسرع ما يستطيع للاتفاق على بناء مقبرة، فجاء المُكاري إلى الحارس بالرسالة ففضها فتهلّل وجهه وراح يحسب الريح المنتظر من وراء هذه «المقالة»، فلم يصرف المكاري بل ركب الحمار ومضى إلى التاجر ودخل عليه وحيّاه ودار بينهما حديث:

الحارس: إن شاء الله تكون الوالدة بخير.

التاجر: بخير، بارك الله فيك.

الحارس: هل هي مريضة جداً؟

التاجر: نعم، ولكن الله المسئول أن يخفف عنها ويلطف بها.

الحارس: إن شاء الله. لقد بعثت لي حضرتك برسالة وقد جئتُ حسب أمرك.

التاجر (مستغربًا): رسالة لماذا؟

الحارس: نعم، ألسنتَ حضرتك فلانًا؟

التاجر: هو بعينه.

الحارس: إذن الرسالة منك.

التاجر: ولكن ... هل تسمح لي بمعرفة اسمك؟

الحارس: آه! يظهر أن حضرتك لم تعرفني، ولهذا تستغرب أن تكون قد بعثت إليّ

برسالة. أنا فلان.

التاجر: أرجو ... أن تزيدني بيانًا، فلست أذكرك ولا مؤاخذه.

الحارس: هذا غريب!

ورأى أن يحل الإشكال ويحسم الخلاف بتقديم الرسالة التي تلقاها. وتصور موقف

الرجلين حين فض الرجل الخطاب واطلع على هذه «البشرى» في الصباح الباكر.

ومن نوادر صاحبنا أنه وصف مرة لبخيل طريقة لصنع «الكنافة» وأقنعه بتجربتها.

وجاءنا البخيل بعد أيام — وكان ذلك في رمضان — يشكو ويسخط ويلعن ويقول:

«اشتريت أربعة أرطال من الكنافة، وناولتها امرأتي وقلت أعدّيها، وجئت بثلاثة أرطال

من اللبن الحليب كما أوصاني اللعين — خيبة الله عليه — وغلينا اللبن قبل المغرب

بدقيقتين، وكانت «الكنافة» قد نضجت. فلما سمعنا مدفع المغرب صببنا اللبن عليها

وأغرقتها فيه، وأقبلنا على الطعام نتناول منه بقدر لنترك مكانًا «للكنافة» وإذا بها عجيب

لا يؤكل ولا يصلح لشيء إلا أن يرمى للكلاب! وهكذا ضاع عليّ ما أنفقته في الكنافة من

السمن والسكر واللبن والزبيب والصنوبر والبندق والجوز واللوز وثمان الوقود، وضاع

عليّ سائر ألوان الطعام التي لم أكد أمسها ترقُبًا للكنافة. فبماذا أدعو عليه؟»

وابن البلد لا يعرف الريف ولا يصبر عليه، وإذا خرج إليه استغرب أن الطريق ليس

غاصًا بالمساكن المتلاصقة، وأن الأشجار قائمة هنا وهناك، وأن الدنيا أرحب مما كان

يظن، وأحس بالميل إلى الضحك، ولكن ثقته بنفسه تفارقه مع المدينة التي غادرها، ويرى

نفسه بين الفلاحين غريبًا ويسمعهم يتكلمون فيما لا يفهم، ولا يسعه إلا أن ينهز معهم

بدلوه، ويخطئ عندهم سهراته ومجالسه، ويحتاج أن يغيّر عاداته وأن ينزل عنها وأن

يحتمل الاضطراب الناشئ عن ذلك، ولا يحس في الريف ذلك التعاطف القريب، ولا يفهم

أن ينام على ظهر الفرث ومع النساء والأولاد والطيور والبهائم؛ لأن له «مزاجًا» والناس

في الريف أكثر ما يكونون بُعداء بعضهم عن بعض، وهم يقضون أوقاتهم مبعثرين

في الحقول فليس في مجالسهم ذلك الصقل ولا تلك النعومة التي تكون لمجالس أهل المدن، فهي لا تخلو من جفوة طبيعية وتكُف محسوس، وصخبٍ مرجعه إلى اعتياد أهل الريف أن يتخاطبوا بأصوات عالية لبُعد المسافات بينهم، وقلما يشعر الحضري بحرارة الترحيب إلا حيث يكون قدوم الغريب «حادثة» يندر أن تتكرر، فيتدفق الكرم المحبوس إذا لم يكن له مجال! ولظهوره فرصة كبيرة فيُقبل الناس عليه ويفرحون به إقبالهم على التحفة النادرة أو المنظر الذي لا يوجد به الزمن مرارًا، وهكذا كان الحال قبل أن توثق المدنية ما بين القرية والمدينة من الروابط، وتسهّل عليهما الاتصال والتبادل والتفاهم والتقارب.

وابن البلد قد يكون أديبًا أو فنانًا — إذا كان قد جاور في الأزهر في صدر شبابه — وأدبه البيت أو البيتان من الشعر يُضمّنهما نكتة لفظية أو معنوية، يداعب بهما صديقًا، وأكثر ما يكون نظمه للأزجال والمواليات، وربما نظم التوشيح ودفع به إلى ملحن أو مغنٍّ، وهو لا يحفظ من الشعر إلا ابن الفارض ومن إليه، وإذا كان فنانًا فهو من هواة «العود» على الأخص، تبتدئ وتنتهي دنياه بالشراب والسماع والوجه الحسن، وفيما عدا ذلك لا وجود للدنيا.

ولا يعرف ابن البلد الحبَّ ولا يُحسن أن يعشق، والجمال عنده يوزنه أرتطالاً أو قناطر، والمرأة مخلوق يُداعب ويُغازل ويُجمش إلى آخر ذلك، وليست إنساناً يبادلك العواطف ويعاونك في الحياة ويقاسمك متعتها ومتاعبها ويؤدي مثلك وظيفته التي خُلق لها. وقد ترى ابن البلد عاشقًا ولكنه عاشق بحواسه، لا يعرف صبوة النفس إلى النفس وحنة القلب للقلب.

وهو يوجد في غير كرم، ويمسك في غير بخل، ويتكلم بغير علم. ويضحك بغير جدل. ويحتشم في غير أدب. ويسير في الدنيا غير محتفل. ويقضي الحياة غير عابئ بما كان أو مكترث لما يكون. همه أن يأكل وينام ويسر ويضحك. فالضحك وما يعين عليه من الشراب ومجالس الإخوان غرض يسعى إليه وغاية تعتمد. والحياة آخرها الموت. فما خير التعب فيها وإرهاق النفس بالعمل والطلب؟ أليس كل شيء إلى فناء؟ فما أولاه باغتنام الساعة التي يكون فيها وما أسخف من يُعنون أنفسهم ويحرمونها لذات العيش ومُتّع الوجود؟ ألم ترَ إلى فلان الذي قضى عمره يجمع المال ويطلب المناصب ويريق ماء وجهه على الأعتاب ويُقتَر على نفسه ليغنى ويضيق على ذويه ليتسع؟ ألم ترَ إليه كيف قضى نَحبه وهو جالس على باب الحلاق؟ فماذا أجدى عليه تعبهُ وسعيه وتقديره وحشده؟ إن

ابن البلد

فيه لِعِبْرَة لسواه. فهات الكأس وأصلح الأوتار، وأطلق صوتك بالغناء ينفي عن النفس
وحشتها وتجل صداها وتُنسِها أن الحياة إلى انقضاء.
فابن البلد فلسفة عملية تجهل نسبها العريق في الأبيقورية المشوّهة، ولم يعفُ عليها
الزمن حين عفا عليه.

صورة وصفية لصحفي

قضى «م» سنة كاملة يعمل في سكون في الصحيفة التي التحق بها، ويؤدي الواجب الذي وكله إليه رئيسه بإخلاص ودقة، وكان واجباً شاقاً، ولكنه كان يجد فيه مَلْهَأة عن هموم الحياة. وعرف له رئيس التحرير فضله فكان لا يفتأ يُثني عليه ويشجعه ويبلغه حُسن رأي الناس فيه وحمدهم مجهوده، وكان يُخجله أن يسمع هذا المدح ولا يدري بماذا يجيب فيقطب — وهو يريد أن يبتسم — ويتلفت يميناً وشمالاً كأنما يبحث عن نافذة يثب منها. وطلب منه رئيس التحرير يوماً صورته فريح المسكين وقال: «صورتني؟» قال: «نعم صورتك. نحن في ديسمبر كما تعلم.»

قال وقد زادت حيرته: «أعلم هذا، ولكن ما العلاقة بين كوننا في ديسمبر وبين صورتني؟»

فابتسم رئيسه وقال: «قد اعتزمتُ أن أعطيك جوازَ ركوب مجاني للترام. هذا ما أستطيع أن أكافئك به الآن، وقد كان بودي أن أزيد مرتبك، ولكن لا أرى هذا ميسوراً في الوقت الحاضر. وفي مرجوي أن أستطيع بعد قليل.»

ولبت أياً ما يخجل أن يُبرز الجواز أو يبنى عمال الترام أنه «أبوني» ويؤدي أجزر الركوب، ذلك أنه أحس بشيء من الحرج؛ لأن الجواز مجاني، وخيّل إليه لغير ما سبب معقول أن «الأبوني» منحة من الشركة، فلا يبعد أن يخطر لها يوماً أن تسترده، وتجسّم له وهمّه فكان يتصور أن العامل جاءه يطلب ثمن التذكرة، فقال له «أبوني» فطلب رؤية «الأبوني» وفتحه ثم طواه ودسّه في جيبه وقال «تذكرة من فضلك»، ومع اطمئنانه إلى استحالة هذا، صار يستدرج إخوانه الذين يحملون مثل جوازه ليركبوا معه. أو على الأصح يركب معهم وإن كان طريقهم غير طريقه ليطمئن ويتشجّع، حتى أُلِف هذه

الحالة الجديدة. وعلى أنه مع ذلك ظل زمناً كلما مر به عامل الترام وهو راكب، يتوَحَّى أن يكون سلوكه وهيبته على خير ما ينبغي. فإذا كان واضعاً رجلاً على رجلٍ أنزلها، وإذا كان يتكلم صمت، وإذا كان ناظرًا إلى اليمين أو الشمال رمى بعينه إلى الأمام كأنه تلميذ لمح المدرس يتشاغل عن الدرس.

وكتب يوماً مقالاً ودفعه إلى رئيسه فما راعه في اليوم الثاني إلا رؤية المقال في صدر الجريدة وفي ذيله اسمه. فألقى القلم وأسرع إلى رئيسه يؤكِّد له أنه لم يذيل المقال باسمه، وأن المسئول سواه عن هذا الخطأ أو التصرف المعيب. فقال رئيسه: «ألم يخطر لك أن من الغبن أن جمهور القراء يجهل اسم كاتب مقالاتك؟»

فدهش واستحيا أن يخالف رئيسه لا جبناً؛ بل لأنه لا يحب أن يتهمه رئيسه بقلة الفهم، ومضى الرئيس في كلامه فقال: «لقد وضعت اسمك في آخر المقال حتى من غير أن أستأذنك.» فتمتم «العفو. أستغفر الله.»

«لأنني رأيت أن من الواجب إنصافك. إن أسلوبك فيه فن وقوة لا أرى لهما مشبهاً في كتابات غيرك. ومن العدل أن يعرف القراء أنك أنت صاحب هذا الفن الرائع ومبتكر هذا الأسلوب المحكم.»

فوجد قوة كافية للاعتراض فقال: «ولكني لا أعرف أن لي أسلوباً...»

فقاطعه رئيسه: «إن هذا تواضع يزيد قدرك.»

فتحامل على نفسه وقال: «أؤكد لك أنني صادق.» «لا شك في ذلك.»

«ليس لي أسلوب أو فن، وليس في قولي هذا شيء من التواضع إنها الحقيقة.»

قال الرئيس «إذن هو كبر أن يكون بك كبر.»

قال: «كلًا. كلًا. ولا هذا.»

قال الرئيس وقد ضجر: «إذن أعصابك متعبة استرح بضعة أيام.» ولكنه لم يسترح، وحاول بعد هذا الحديث أن يكتب فصار يمزق ورقة بعد أخرى ولا يزيد على سطر في واحدة منها. فوضع القلم يائساً وقال ما أظنني أستطيع أن أكتب شيئاً بعد هذا، وراح يعجب كيف كان يؤاتيه الكلام وكيف صار يستعصي عليه الآن، أسلوب؟ فن؟ ماذا يعني؟ إن كل ما يعرفه أنه كان يتناول القلم ويُجره على الورقة، وكانت الألفاظ تُسِعِفُه ولم يكن يجد عناء في تخيرها، بل لم يكن يتخير أو ينتقي، فما له الآن لا يقدر أن يخطَّ حرفاً؟

وتناول طائفة من أعداد الجريدة وجعل يقرأ مقالاته من جديد لعله يقع على ما فيها من الفن ويتبين ذلك الأسلوب الذي يذكره، فلم يهتدِ إلى أسلوب أو فن، وألقى الصحف ونهض عن المكتب واستأذن في الخروج، وقد أيقن أن مستقبله في الصحافة قد قُضي عليه.

وبعد بضعة أسابيع دعاه رئيس التحرير وطلب منه أن يتحرَّى مسألة من المسائل. فقال: «أرجو أن تدع لي مفاتيح المكتبة.»

فذهل رئيس التحرير وقال: «المكتبة؟ أو تحسب أن هذا مما يوجد في الكتب؟» فسأل: «أين إذن أجده؟»

قال: «لو أمهلتنى لما أحوجتني إلى هذا.» وشرح له الموضوع ثم قال: «فعليك الآن أن تقابل وزير الخارجية في مكتبه.»

فسأل: «متى أستطيع ذلك؟»

فضجر الرئيس وقال: «لا تكن طفلاً يا «م»...»

وفي صباح اليوم التالي ركب سيارة حملته إلى الوزارة المقصودة، فلما دخل لم يدير إلى أين يذهب ولا إلى أي ناحية يقصد، ووقف لحظة يدير عينه في البناء ويرجو أن يلقي أحداً تكون له به معرفة، ولما طال الأمر راح يتمشَّى، ثم خشي أن يضيع الوقت فعاد إلى الجندي الواقف بباب الوزارة وقال: هل تستطيع أن تدلني على غرفة صاحب المعالي الوزير؟

فصعد الجندي فيه نظره وصوبه ثم قال: «ادخل من هنا وامش في خط مستقيم.» ففعل ولم يزل داخلاً حتى صار في حجرة واسعة فاخرة الأثاث، ولكنه لم يجد فيها لا مكتباً ولا وزيراً والتفت فرأى باباً موارباً فمد عنقه وأطل منه فرأى مكتباً وليس أمامه إنسان، فشجعه خلو المكان فالتفت وراءه فلم يجد أحداً، فتقدم خطوة وأطل مرة أخرى فأخذت عينه ما أيقن معه أن الغرفة غرفة الوزير، ولكن الشك خامره. إذن أين الوزير والساعة الآن الحادية عشرة؟ وكيف يخلو المكان من حُجاب وشرطة وموظفين قائمين في خدمته؟ كلاً. بل أكبر الظن أن الوزير في مكان آخر. ورجع فالتقى بشرطي فسأله. فقال بل هي الغرفة وهنا (وأشار إلى غرفة صغيرة) سكرتير الوزير. فحمل بطاقته مستأذناً في الدخول عليه وخطر له وهو يناوله البطاقة أن مخبري الصحف مساكين؛ لأنه ظنهم لا يدخلون على موظف إلا إذا بعثوا إليه بطاقتهم مقدماً. وأذن له في الدخول

فحيّاه بلسانه ورفع به بالسلام فلم يزد السكرتير على أن هز رأسه، وقال: نعم. قال هل أستطيع أن أقابل معالي الوزير؟

قال السكرتير: «إنه مريض.»

فقال صاحبنا: «مريض؟ لا بأس عليه. أرجو أن تبلغه سلامي.» فابتسم السكرتير وخرج «م». وقد سرّه أن الوزير مريض وأنه نجا من لقائه أكثر مما ساءه أن عاد بلا جدوى.

وحُيِّل له أن رئيس التحرير يدرك ما انتابه وأنه يتعمد أن يصرفه عن الكتابة ويكلفه مهمات من هذا القبيل، فقد بعث به في اليوم التالي إلى وزير الحقانية، فخرج ولم يركب في هذه المرة سيارة؛ لأنه تفقّد ما في جيبه فاستقلّه، ولم يشأ أن يرهق الجريدة بكثرة النفقات، وخجل أن يطلب أجرة الركوب مقدّمًا. ولم يكن قد احتاج من قبل أن يذهب إلى وزارة من الوزارات، فسأل بعض من لقيهم في الطريق فدلوّه، وكان وهو سائر يفكر في ثقل هذه التكاليف وفي هذه الضرورات المتعبة، وانتقل من هذا إلى التفكير في الموضوع الذي يقصد إلى الوزير من أجله، فلم يرَ أن المسألة تحتاج إلى استفهام أو لقاء وزير، وكيف يبدأ الكلام؟ وماذا يفعل إذا رفض الوزير أن يجيب؟ ولماذا لا يذهب رئيس التحرير بنفسه؟

وكان في أثناء ذلك قد دخل من باب وزارة وقطع الفناء ووصل إلى السلم فصعد وهو لا يزال يحاور نفسه، وسأل عن غرفة السكرتير فسار به شرطي إليها، فأعرب له عن رغبته في مقابلة الوزير، وكان السكرتير يعرفه فأكرمه ورحبّ به وطلب له قهوة، وبعد نحو ساعة مضى به إلى باب فتحه وأشار إليه أن يدخل.

فقال الوزير: «أهلاً وسهلاً ... زيارة نادرة، تفضل.»

فجلس على حرف الكرسي وافتّر فمه عن ابتسامه بلهاء، وكان يدرك أن عليه أن يتكلم، ولكن لسانه خانه كأنما قد استلّ منه، ولم يكن ينقصه أن يحدث له هذا ليزيد ارتباكّه، وكان الوزير دمثاً رضيّ الخلق، فابتسم وقال له وهو يميل إليه: أتشرب القهوة؟

– كلاً!

– إذن خذ سيجارة.

– ولا هذه!

– ألا تدخن؟

فأوماً المسكين برأسه أن نعم، فقال الوزير «إذن يجب أن تدخّن!»

وقدّم له العُلبَة فأخذ منها واحدة وأسقط واحدة أخرى على المكتب واستطاع فضلاً عن ذلك أن يطير بكمّه بضع أوراق، وانحنى يريد أن يلتقطها ويعيدها إلى مكانها، فصدّم المكتب برأسه ونزل الطربوش إلى أذنيه، فضحك الوزير وقال: «لا بأس، والآن ماذا أستطيع أن أفعل لك؟»

فجرّ صاحبنا الكرسي ودنا به من المكتب وتنحنح ثم استطاع بجهد أن يفيضي بالموضوع، وكان الوزير في أثناء ذلك يقطبّ حاجبيه أو يرفعهما أو يستعيده بعض ما يسمع منه، وهو مستغرب، وصاحبنا لا يفطن إلى آيات الدهشة في وجهه ولا يدرك أمارات العجب ولا يلتفت إلى دلائل الملل، وأخيراً قال: «وقد جنّت راجياً أن تتفضلوا عليّ بيان وافٍ على قدر المستطاع في هذا الموضوع.»

فقال الوزير ولم يخفِ امتعاضه: «ولكن هذا من اختصاص وزير الحقانية!» ولو كان صاحبنا حاضر الذهن لفظن إلى الغلط الذي وقع فيه ولاستطاع أن يُحسِن التخلُّص. ولكن لسانه سبق رأسه فقال: «ولهذا جنّت لمعالكم.»

قال الوزير وقد اشتد امتعاضه: «ولكني لستُ وزير الحقانية»، فبُهِت المسكين، ووقف لسانه في حلقة، ودارت به الأرض، ورثي الوزير له وأدركه العطف عليه، فلاطفه وقال: «لا بأس، الغلط مردود (وضحك) لم يَضِع الوقت، يمكنك أن تقصد إلى وزير الحقانية الآن، لقد سرّرتني زيارتك على كل حال وأرجو أن أراك مرة أخرى، نهارك سعيد.»

وخرج «م» وهو لا يرى ولا يفهم شيئاً. ماذا عسى أن يقول عنه رئيس التحرير أو أي إنسان حين يعلم أنه يخلط بين وزير الحقانية ووزير ... أيّ وزارة هذه التي كان فيها؟ حتى هذا لا يعرفه أو هل يجرؤ الآن أن يستخبر أحداً؟ وهل يجرؤ أن يعود إلى جريدته جاهلاً أيّ وزير قابل، فوق ما كان من جهله وتخليطه.

ولم يكن يخفى عليه أن الحل الوحيد هو أن يقصد إلى الحقانية ويقابل وزيرها. ولكن اضطرابه بلغ مبلغاً احتاج معه إلى علاج، فقصّد إلى قهوة قريبة وألهم أن يطلب كأساً من الويسكي جرّعها صرفاً، ولم يلبث أن سكنت نفسه قليلاً، فشرّب كأساً ثانية وثالثة، ثم قام إلى بغيته وبه من الثقة بالنفس ما لا يذكر أنه أحسه من قبل، ورأى من الأمانة أن يكاشف رئيس التحرير بما كان من غفلته. فضحك حتى كاد يقع من فوق كرسية وقال: يا صاحبي. إنك كاتب لبق يسعك ما لا يسع فرقة بأسرها من الكتاب حين تجلس إلى مكتبك، ولكن حين تلقى الناس لا تعود صالحاً لشيء أو قادراً على شيء. فاذهب إلى مكتبك ولا تزايله فما نستطيع أن نخلق خلقاً جديداً.

حلم بالأخرة

(١) وادي الأشباح

عدتُ من هياكل «الكرنك»^١ مكدودًا معفرًا، وكان الجو دافئًا والسماء صافية لا أعرف لزقتها في غير «الأقصر» مشبهًا، فغيّرت ثيابي وبدا لي أن خير ما أصنع — لأريح جسمي التَّعبَ وذهنِي المكظوظَ — أن أركب زورقًا أسبح به على النيل. ولما استويتُ فيه دأيتُ يدي إلى الماء وانتثيت أفكر فيما رأيت وأستعيد ما شهدت، ولكن صورة «سخت» في حجرتها المظلمة أفسدت عليَّ هذه الفكرة التي كنت أرجو أن أستمتع بها في زورق على النيل، ومن ذا الذي يراها ولا تعود أبرز ما يطيف برأسه، رأس لبؤة وجسم امرأة، وعينان ليستا بعين امرأة ولا عين سبع، تحدقان في الظلام وتبحثان عن الفريسة، وذلك أنها هي الموكلة بالتَّهام الأرواح المذنبة في الآخرة.

وأغفيت وأنا أفكر فيها، ورأيت وأنا نائم على النيل حُلْمًا مضطربًا كله تخليط على عادة الأحلام. وانقلب النيل نهرًا آخر — ستيكس — نهر الأغارقة الذي تقول أساطيرهم إن الموتى يعبرونه إلى وادي الأشباح، وأض الملاح الذي يجدف به على النيل «شارون»^٢ وإذا على الشاطئ حشد عظيم من الأموات يسوقهم «هرمز» بالعصا وهم يبكون ويولولون ويندبون الحياة التي خلعوا ثوبها ويبغون الرجعى إليها، ولا يطيقون الحقيقة العارية الباقية التي صاروا إليها، ولا يتعززون عن أحلام الدنيا التي كانت تفيض لهم على الوجود بريقًا مستعارًا خادعًا؟ أه لقد ذهب سماؤهم كلها مع تلك الأحلام!

^١ في سنة ١٩٢٤.

^٢ الملاح الذي ينقل الموتى على زورقه إلى وادي الأشباح.

وحُشروا جميعاً في الزورق الذي اتسع لهم جميعاً، الأطفال حزمة واحدة بلا سؤال أو مراجعة، ثم الشيوخ والعجائز الذين لم يُبِكهم أحدٌ، ثم قتلى بعض المعارك في جهات من الأرض لم أسمع بها في حياتي — فما أحوج علم الجغرافيا إلى بعثة تذهب إلى هناك — ثم رجل قتلته امرأة وعشيقها، ثم الذين أفنتهم الحُميات ومعهم طبيب هَرِم، ودفع شارون الزورق على اللُجة، وتركني على الشاطئ فأحسست بالوحشة وخِفْتُ أن أتعفن إذا بقيت وحدي إلى الغد، فصحت بشارون أن يحملني معه فأبى وقال: إن الزورق غاص وليس فيه موضع لقدم، فبيّست غير أن واحداً من الركاب أهاب بي أن أُلقي بنفسي في الماء وأصبح فقلت له: إني لا أحسن السباحة وقد ... أغرق.

ففقده وقال: ماذا تخشى من الغرق وقد مُتَّ؟

فرميت بنفسي في الماء وُعِمتُ إليه، ومد يده فجدبني ودار بعينه فلم يرَ لي مكاناً فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وقال وهو يبتسم: أنا — أيضاً — قلق في موضعي هذا، فتعال بنا ننقّي لنا اثنين من هؤلاء المعولين المنتحبين نجلس على أكتافهما!

وفعلنا ودار شارون بالركاب يتقاضى أجرة النقل، وتنبهت إلى ذلك فقلت لصاحبي:

«ولكني مُعِدِم وقد جردوني من كل شيء لما مُتَّ فماذا أصنع؟»

قال: «لا بأس عليك! فما أنا بخير منك، فاسكت أنت ودع الأمر لي.»

وجاء شارون يطلب الأجر، فقال له زميلي: «ماذا تنتظر ممن ليس معه شيء؟»

قال شارون: «كيف؟ هناك أحد ليس معه أجرة النقل إلى الوادي؟»

قال: «لا أعلم، ولكننا هنا اثنان لا نملك مَلِيماً، فأشِرْ ماذا تأمر؟»

قال شارون: «واثنان أيضاً؟ وحقُّ بلوتو أخنقكما!»

قال زميلي: «خذ الأجرة ممن بعثوا بنا إليك!»

قال شارون: «ولكنك كنت تعرف أن عليك أن تؤدي لي هذا الحق، فلماذا لم تستعدَّ

قبل هذا المجيء؟»

قال: «لم يكن معي شيء، فهل كان ينبغي أن نظل أحياء وألا نموت من أجل ذلك؟»

قال شارون: «أتريد أن تكون الوحيد الذي يُحمل إلى الوادي بلا مقابل؟»

قال: «كلا! لست الوحيد، فإن لي رفيقاً وموئسناً إلى جانبي كما بينتُ لك، وعلى أنا

لا نُحمل مجاناً، فإننا وحدنا دون جمعك هذا لا نبكي ولا نندُب، ثم إننا خفيفان لا نتقل

زورقك، وإذا شئتُ عاوناك ولم نقاسمك الريح ولم نطلب منك الأجر.»

قال شارون: «ولكن هذا لم يحدث قطُّ من قبلُ فهو غير جائز!»

قال: «إذن رَدُّنا إلى الحياة.»

فالتفت شارون إلى هرمز^٢ وقال: «من أين جئت بهذين الحمارين؟ وانظر كيف يضحكان، على حين يبكي كل إنسان؟ لقد كان أولى أن يبقيا هناك على ظهر الأرض، فما هما بجديرين بالموت.»

ومضى عنا وهو يسُبُّنا ويتوعدنا بقبضة يده، فأُسِرُّ إلى زميلي: «ما أسخف وعيده! أيموت المرء مرتين ويُحمل إلى الزورق مرتين؟»

ثم قال لي بعد برهة: «لقد هبطتُ أنغام العويل والنحيب، فما قولك؟ أليس من الواجب أن نضطرهم إلى رفع طبقتها؟»

قلت: «ولكن كيف يسعك ذلك؟»

قال: «انتظر.»

وتنحنح ثم انطلق يغني:

أقبلَ الليلُ علينا بِدُجَاهِ فاسقنا، فالعمرُ آياتُ الشبابِ
غننا صوتًا كأموجِ الحياهِ بين لينٍ واعتلاجٍ واصطخابِ

ولم يكد يفرغ من هذه المقطوعة حتى علا الصياح والنشيج. فواحد يقول: «وا أسفاه على ما خلفت!» وثانٍ يصرخ: «ويحي! سيبدد أخي ما ورث عني»، وثالث يصيح: «ألا من لصغاري!» وهكذا.

ومضى صاحبي في غنائه:

أقبلَ الليلُ فهاتِ القدحا أوليس العمرُ أيامَ الصِّبا؟
غننا لحنًا نديًا فرحا يُطلق الأوصال من قيد الحجى

* * *

وارقصوا بين المنايا واطربوا أوليس العمرُ أيامَ النعيم؟
وإذا ما لامكم مستغرب فدعوا اللائم يذهب للجحيم

^٢ هو الذي يتلقى الموتى ويذهب بهم إلى شارون لينقلهم.

فدنا «هرمز» منه وأوماً إليه أن كفَّ ثم قال: «إن هذا لا يليق، ومن واجبك أن تندب كالباقين.»

قال مستغرباً: «أندبُ؟ أندبُ الحظَّ الذي أتاح لي هذه النزهة الظريفة؟»
قال هرمز: «إن سلوكك شائن. فأرسل عولة أو اثنتين على الأقل فما يجوز أن تُشدَّ عن المؤلف.»
قال زميلي: «حسن. سأفعل.»

ثم وضع كفه على خده وانطلق يصيح: «وا أسفاه على ثوبي المرقع الذي لا يقي في شتاء ولا ينفع في صيف! وا حزاناه على الحفا! لن أجوب الطرقات بعد اليوم متصوراً من الصباح إلى المغيب، ولن أنام على الأفايز وأتوسد الحجارة وأسنانني تصطك من البرد، من ترى سيرت عكازتي التي كنت أتوكأ عليها؟ ويختال في مرقعتي التي كنت أخطر في هلاهيلها!»

فمضى هرمز عنه ساخطاً لاعتناً ورحنا نحن نضحك.
وإناً كذلك وإذا «بشارون» ينادي هرمز ويصيح به: إن الزورق يوشك أن يغرق من ثقل ما يحمل. فماذا يفعل؟
فوقف هرمز كالبله حائراً، ثم وثب رفيقي وقال: «تعال نلق شارون فإننا مدينون له.»

قلت: «إن الغرق شيء أفهمه وقد أحسَّه. أما ما عداه فلا علم لي به يا صاحبي.»
قال: «ولكنك تستطيع أن تشاركني على الرغم من ذلك»، ثم قال لشارون: «اسمع. جرَّد هؤلاء الموتى مما يحملون وألق به في الماء. انزع هذه الحلي عن أصحابها. لقد كانت تنفعمهم في الدنيا أما هنا فهي مثقلة بالغش والتضليل. ودعاوى التقوى والوقار والحشمة.»

قال شارون: «صدقت.» ونزعها جميعاً ورمى بها، «وماذا أيضاً؟»
- ألا ترى هذا الرجل الذي يبكي ويختلس النظر إلى من حوله؟ قال شارون: «نعم. ما له؟»

قال: «أخرج من تحت إبطيه الكذب والنفاق والدهان تتخلص من خمسة قناطر على الأقل. وهذه المرأة الجميلة، عرَّ وجهها وجرَّده من المساحيق فإن وزنها يجاوز الطن، افعل وعجل.» ففعل.

«وهذا الغرور الذي تنطق به عينا هذا الرجل، ألا تحس ثقله؟ إنه يكفي شعباً بأسره!»

«والفلسفة التي في رأس هذا إنها أثقل من الحديد. ألقى بها في الماء. أسرع.»
فأطارها شارون عن رأسه.

وهذا الأديب هناك. ماذا يصنع بكل هذه الألفاظ والمجازات والاستعارات والخيالات
والسخافات؟ إنها كافية وحدها لإغراق زورقك يا شارون.

قال شارون: «نعم والله! أين كنت مخبئاً كل هذه الأثقال؟»

ثم التفت إلى زميلي وقال: «كفى كفى يا صاحبي! إن الزورق الآن أخفُّ من الريشة.
وأحسبني مديناً لك بإنقاذ سفينتي.»

قال زميلي مقاطعاً: «أمسك، لا تقلها مرة أخرى بشكرك إياي.» وعُدنا إلى مكاننا
وانطلق الزورق خفيفاً يشق النهر ويفرِّق أمواجه الراكدة، ودوننا من الشاطئ عند
الفجر وحاذيناه فوثب صاحبي إلى الأرض وأنا وراءه.

ثم أهوى على الباب العتيق بجر ضخم وراح يدهقه كالذي يريد أن يحطمه فهب
«أتروب»^٤ وقد طار كراه وأقبل على الباب يتعثر في مشيته، ورمى مصراعيه وسأل: مَنْ
الطارق؟

قال زميلي: «أنا.»

قال «أتروب»: «أنت؟ أنت ماذا؟ ما شأنك هنا؟ ما اسمك؟» فمال إلى زميلي وقال:
«كأنما كنت شيئاً في الدنيا فيعنيه أن يعرف مَنْ أكون.» ثم التفت إلى الحارس وقال:
«ومَنْ عسى أن أكون؟ أتراك تتوهمني بروميثيوس قد فكَّ أصفاده وجاء يعتيق البشرَ من
أسرِّ الموت؟»

ثم لَوَّح بيده مشيراً إلى الرُّكْب الذي في الزورق ورفع صوته مغنياً:

حيِّ يا أتروبُ ألوانَ الصباح طلع الفجر عليكم بالرَّمَمِ
بين نَدْبٍ وعويل وصياح جاء وفدُ الموت من كل الأُممِ

* * *

جاء وفد الموت يحدوه الدليل ويغني سوطه فوق الظهورِ

^٤ أتروب حارس الباب بوادي الأشباح.

ويميل الصفّ في كل مميل وهو خلف الصفّ وثأب يدور

* * *

لستُ خيراً منهمو وا أسفاه أوْكَان «الخيرُ» إلا شططا
غلطُ جاد به، ثم أباه دهر سوء لا يُعيد الغلطا

* * *

بل يعيد الغلط المتردّلاً! أوْليس الناس أغلاطاً تُعاد؟
ولو أن الدهر شاء إلا مثلاً لخلتُ منهم قُراهم والبلاد

وكان هرمز وشارون في خلال ذلك قد أفرغا حمولة الزورق، فلما سمع الموتى هذه الأغنية تصايحوا وضجّوا وهمّوا بزميلي ولكنه تلقاهم بابتسامة استخفاف وقال لهم: أيسوءكم أن يلحق بكم من خلفتم فوقها؟

فارتدوا ساكنين، وتقدّم هرمز بورقة فيها بيان مُجمل بعدد الموتى، فتسلّمها أتروب وبدأ يُعدّ ثم كفّ وهو يقول: ما أظن ميتهاً يفلت أو حياً يجيء قبل الأوان. امض بهم يا هرمز إلى ساحة رادا مانتييس.^٥

فساقنا هرمز أمامه، وتقدم صاحبي الصفوف وسرتُ معه في طليعتها وانطلق

يغني:

دارنا مغرب أنوار الحياة من رآها لم يرَ الضوء الطليق
ما لمن يهوى إليها من نجاه ما لما يغرب فيها من شروق

* * *

وهي في الأكوان دنيا عافر كل زخار له فيها ركود!
ضرب السحر عليها ساحر فهي عنوان على عقم الوجود!

وطال بنا الانتظار على باب رادامانتييس إلى أن جاء دوري فتقدمتُ، وزاحم زميلي فدخل معي ولما صرتُ أمام القاضي سألتني: ما اسمك؟

^٥ قاضي الآخرة في أساطير الإغريق.

قلت: «المازني.»

قال: «ماذا؟ ال ... ال ... ماذا؟»

فلو كنت حياً لاحمرَّ وجهي وقلت: «المازني. لقد كنت أحسب شهرتي قد سبقتني.»

قال: دع هذا المزاح. من أين جئت؟

قلت: «من مصر.»

قال: «مصر؟ ولماذا جئت إلينا؟»

قلت: «وأين كان ينبغي أن أذهب؟»

قال: «إنك من أفريقية فإذهب إلى قِسمك.»

قلت: من أين؟! عهدي حديث بهذا الوادي.

قال: «لا بأس، سيدلونك عليه. يا هرmez، أرشد هذا التائه إلى سومبور.»

فألقيتُ إلى صاحبي نظرة أسف على فراقه، فجدبني إلى الورا وأسرَّ إليَّ: «سأذهب

معك.»

قلت: «ولكنك لستَ من مصر.»

قال: «ماذا يهم؟ مَنْ أنا حتى يعرفوا مَنْ مصر أنا أم من غيرها! هيَّا بنا.»

(٢) بين أيدي القضاة

انصرفنا من ساحة رادامانتيس، وتَّيَّنا الخطأ إلى الشاطئ — وكان هرmez قد سبقنا — وفي مرجونا أن يحملنا شارون إلى القسم الأفريقي، فألفينا هرmez وشارون مختلفين.

يقول هرmez: «لقد آن جدًّا يا شارون أن تؤدي إليَّ ذلك الدين القديم فما بقي لك عذر.»

فيقول شارون: «ما أحسبني أنكرت قط يا صديقي أنني مدين لك.» فيهز هرmez

كتفيه ويمط شفتيه ويقول: «لشد ما نفعني أنك لا تقصِّر في الاعتراف! هذه عملة لا

أعرف أحدًا سواي يقبلها، فهات ما عليك وأنكر إذا شئت أنك مدين لي.»

فيبتسم شارون ويفرك كتفيه ويقول: ولكنك لم تبين لي قط مقدار هذا الدين، فيقبل

عليه هرmez ويقول: «إن البيان حاضر فليتك مثلي استعدادًا لتقديم الحساب. المرسي

والحبل بسبعين قرشًا.» فيقاطعه شارون: «سبعون قرشًا. وحق بلوتو لقد خدعك! أو

أنت تضحك على شيبتي!»

فينتفض هرmez واقفًا ويقول بصوت عالٍ: «أضحك عليك! أنا؟ أهذا جزائي منك؟ لا

مال ولا شكر؟»

شارون: هون عليك يا صاحبي فما إلى هذا قصدت. سبعون قرشاً إذن وماذا أيضاً؟

هرمز: وإبر لترقيع القلع، وشمع لسد الخروق، ومسامير، وجلد للمجاديف بعشرين قرشاً.

شارون: صفقة حسنة. وماذا؟

هرمز: هذا كل ما أذكر، تسعون قرشاً. وبسط يده.

شارون: الآن يا صديقي يتعذر عليّ أن أنقذك هذا القدر، فإن العمل قليل والريح ضئيل. لا وباء يفتك بالناس، ولا حرب تحصدهم، ولكنني أعدك أن أؤدي إليك دينك إذا نشطت الحركة.

هرمز (ممتعاً): الأفضل عندي أن يظل دينك مطولاً.

ثم نظر إلينا وقال: «هيا بنا.»

فقال شارون: هذان المفلسان لا عجب أن يعودا وأن ترفضهما حتى الجحيم.

فقال صاحبي: «ألا تنقلنا إلى ...»

فقاطعته شارون ولم يمهله ريثما يتم كلامه: «أنا؟ أتراني جُننت؟ اذهب أنت وصاحبك فما فيكما خير.»

وهكذا رددنا، وذهبنا سيراً على الأقدام، وجعل هرمز يشكو في الطريق ويتسخط ويُعرب عن تَبْرُمه بحياته وكثرة الواجبات الموكولة إليه. فهو يقوم في الفجر ويُعدُّ المائدة السماوية ويرتّب حجرتها، ثم يقف بجانب زيوس ليتلقى أوامره وليؤدي رسائله إلى أصحابها النهار كله، وفي الليل لا ينام بل يذهب بالموتى إلى بلوتو ويقف في ساحة القضاء حاجباً، ثم إنه يدرّب الخطباء ويشهد الاجتماعات ويفعل غير ذلك أشياء يخطئها الحصر. حتى لقد كان يؤدي وظيفة الساقى لزيوس قبل أن يتزياً «زيوس» في زي نسر ويخطف الغلام «جانيميد» ويتخذه ساقياً له يأخذ من كأسه رشفة، ومن شفتيه البضتين أخرى، ويكايد به زوجته «هيرا».

وأخيراً بلغنا سهلاً فسيحاً أمام «الكرنك»، وسرنا مسافة في ظل أشجار الليمون، حتى خرجنا من تحتها، ووقفنا مع آلاف الموتى من أمثالنا، وكان القضاء خمسة وقد جلسوا صفّاً واحداً، فأسرّ إليّ صاحبي أن تعالَ نشهد الرواية من أولها، وجذبني وزاحم بي حتى صرنا إلى الصف الأول، فسمعنا من عرفنا ممن حولنا أنه «سومبور»، وهو

رجل نحيل هزيل الجسم متهضم الوجه أسود العينين برأقهما وفي يده زهرة من زهرات البردي يقول: «أيها الزملاء، إن «سخت» تنتظرا!»
فَسَرَتْ في أجسامنا رعدة، ونُودِي الأَوَّلُ ففتقدّم وسمعنا كلامًا كهذا. سومبور — وهو يعبث بزهرة البردي — قل الحق الذي تعرفه ولا تحاول أن تكذب. أهى الخمر؟
قال الرجل: نعم.

ديارناك (وهو ميدد القامة معتدلها كالجندي لا يلتفت يُمنة أو يُسرة، وحول وجهه لحيّة كثة): هل حُوكِمت من قبلُ على الشراب؟
الرجل: لا يا سيدي.

ممبرون (وهو عريض الوجه لمّاع الجلد كأنما كان قد دهنه بالليل، يتسم تارة ويتجهم أخرى، وفي إحدى كفيه قطعة من الذهب وفي الأخرى صرة صغيرة): كيف تقول؟ من أي بلد أنت؟
الرجل: من قرية اسمها ...

بوتا (وهو بدينٌ قصيرٌ أحمرُّ الوجه أبيضُ الشعر، له عينان كعيني الخنزير وأمامه ختم ذهبي كبير): دع هذا، وقل لنا: لماذا أولعت بالشراب؟
الرجل: لأنه مريض.

بوتا: لستُ أفهم. إنني أحبُّ الكأس أو الاثنتين من الويسكي مُشعَّعًا بالصودا ولكن الإفراط ... هذه هي المسألة.

الرجل: إن المسألة هكذا، كلما ألحَّ عليَّ الإحساس بالشقاء أفرطت في الشراب، وكلما أفرطت في الشراب زاد إلحاح الإحساس بالشقاء ...
ممبرون: الحلقة المفرغة مرة أخرى.

موروسكن (رَجُلٌ مثقف مغضن الوجه على ذراعه قِطْةٌ يمسح لها شعرها بيده الأخرى): وماذا عندك غير هذا على سبيل الدفاع عن نفسك؟
الرجل: لا شيء. ولقد يُخيل إليّ الآن بعد أن متُّ، أنني كنت أستطيع أن أنقذ نفسي لو أنني اشتغلت في الدنيا بوصف السعادة للناس حين أحسُّ أنا بالشقاء.

موروسكن: أتقصد أنك كنت تريد أن تكون روائياً؟ هذا جميل الحق أقول يا سومبور. إنني أعتقد أن التفاؤل لا يزال يقوم في الدنيا على قاعدة من مرض الفنان أو شفاؤه. أليس كذلك؟

سومبور: قد يحلو لك هذا البحث. أما أنا فأطلب أصواتكم.
ديارناك: إن الشرب أفقد الدنيا جندياً. فليقذف به إلى «سخت».
ممبرون: سخت.
موروسكن: ولكن الرجل يكاد يكون فناً، إنَّ التماس السعادة ...
سومبور: ليس عندنا وقت لهذا. هاتوا بقية الأصوات.
بوتا: سخت.
سومبور: خذوه إليها — بأربعة أصوات.

وجرّوه إلى شجرة ليمون وهمس صاحبي في أذني: «جاروا ولم يعدلوا».
قلت: «ولكن موروسكن».
فقاطعني صاحبي: «إنه مغفل».
ونودي الثاني، فتقدمت فتاة وسيمة شاحبة اللون مقدودة قَدَّ السيف، ولكن عينيها،
على جمالهما، كالكهفين.
وقال سومبور: كم سنك يا هذه؟

الفتاة: اثنتان وعشرون سنة.
موروسكن: قبل الأوان. قبل الأوان.
بوتا: لماذا مُتُّ؟
الفتاة: فزعاً.
موروسكن: فزعاً؟ ما أقسى هذا!
سومبور: من أي شيء؟
الفتاة: من الشرطة.
ممبرون: آه، أمنهن أنت؟
الفتاة: نعم يا سيدي، ولكن مهما يكن ذنبي فقد شاركني في إثمه رجل.
موروسكن (متأثراً): هذا حق، وإنها لمن الفظائع الكُبر، أن يضع الرجال الشرائع
وأن يتحيزوا فيها لأنفسهم.

بوتّا: ولكن ماذا دفعك إلى هذا؟

الفتاة: تزوجتُ رجلاً كانت حياتي معه جحيماً، ثم أحبني آخرُ وظننته «الرجل الموافق» ولكن الغريزة خاننتني، ولقيتُ ثالثاً قلت لعله هو الموافق ولكنه لم يكن، وهكذا حتى لم أعد أعباَ من يجيء ومن يروح وإن كنت لم أزل أرجو أن أفوز «بالرجل».

موروسكن: أه! طلبُ الكمال والسعي إلى المثل الأعلى ...

بوتّا: ماذا تقول امرأتي لو سمعتها؟ إن لي فتيات ... دعوها، أخلوا سبيلها.

ممبرون: إن روابط المجتمع تتفكك إذا أطلقناها. فلنذهب إلى «سخت».

ديارناك: سخت.

سومبور: صوتان يطلبان لها الخلاص، وآخران يبعثان بها إلى سخت، فعلياً أن أوازن وأن أرجح أحد الرأيين. إذا أطلقناها فكأننا أبحنا الخطيئة، فبأي وجه بعد ذلك ننهى الناس عنها ونزجرهم عن مواقعتها وننذرهم سوء المصير؟ إن هذا يكون خطراً بيناً، نعم إن الرحمة والعطف يدركان النفس على مثل هذه المسكينة، غير أننا خلقاء ألا نطمئن إلى الصوت الذي يدعونا إلى الشفقة ويغرينا بالرحمة، ولا أكتمكم، إن نفسي لا تطاوعني على الحكم عليها، ولكني على الرغم من ذلك أحس أنني أكون منكرًا لنفسي ومعتلاً لسلطاني ومبطلاً لوجودي إذا أعفيتها من العقاب، ونحن هنا قضاة الآداب فياصلة الأخلاق، أفننكر أنفسنا ونعطل وظائفنا؟ كلا! فبكرهي أقول «سخت»، فلتؤخذ إليها بثلاثة أصوات.

فسارعت باسمه وإن ظلت عيناها زائغتين، وحطت على كتفها وهي سائرة حمامة بيضاء فأملت إليها خدها.

وقال صاحبي: «جاروا للمرة الثانية، والحمامة شاهدي».

وثودي الثالث، وكان إلى جانبي. فرفعتُ إليه عيني وعجبت كيف يكون صاحب مثل هذا الوجه شريراً؟

وسأله سومبور: ماذا جاء بك إلينا؟

الرجل: طردتُ عن كل باب؟

موروسكن: يوشك أن يكون هذا ممتعًا، فماذا أنت؟

الرجل: أنا كالريح تهب بشجرة بعد شجرة.

ديارناك: قل وأوجر لماذا طردت؟

الرجل: لأنه لا خير في؛ لأنني جاهل ولا مزية لي إلا حب كل ما هو حي؛ لأن كل من

يلقاني يقول: إذا تقبلناه فقدنا القوة والمال ولم يبق لنا سوى الحب، وما جدوى الحب؟

ممبرون: إنك عامل من عوامل الانحلال والتفكك.

الرجل: كالريح أيضًا، هي التي تحلل وهي كذلك التي تؤلف وتجمع.

سومبور: وهل في وجودك ما يعارض وجود القضاء؟

الرجل: إن من يتقبلونني، لا يعودون يعنون بالحكم على شيء؛ لأن قلوبهم تكون

أحفل بالحب من أن تفكر في سواه.

ديارناك: أنت متمرد.

الرجل: كلاً، ولكن حيث أكون لا يبقى محل للأمر والنهي؛ لأن كل شيء يكون في

خدمة الحب.

بوتا: هذه فوضى.

موروسكن: إنني معجب بك، ولكني أحب أن أطمئن، فقل لي: هل وجودك يضر

براحة الحياة ونعيم العيش؟

الرجل: ما هي الراحة؟ وأي شيء هذا النعيم؟ أما شيء غير الإيثار وكف الأذى،

وأن يخفق القلب بالغبطة وأن ...

موروسكن: دعني من فضلك.

بوتا: ماذا يكون مصيري لو أشركت الناس في مالي؟ وأثرتهم على نفسي؟

– كلا! يا سيدي، إن خير الدنيا أن تفتح سحت فمها لتبتلعك.

سومبور: إذا بقيت أنت فلن يبقى محل لي ولا لقضائي.

ديارناك: ولا لجنودي.

ممبرون: ولا لشرائعي.

موروسكن: ولا لراحتي، فأنا آسف.

واجتمع الخمسة على أن يلقموا سحت هذا المسكين.

قال صاحبي: «لقد أصابوا.»

قلت: «ماذا تعني؟ بأي حق يرسلونه إلى سحت؟»

حلم بالآخرة

فقال: «ليس هذا وقت الجدل، فإنهم يشيرون إليك.»

قلت: «إليّ أنا؟»

والتفتُ إلى الخمسة فوجدت عيونهم عليّ، فتقدمت في اضطراب ووجل.

قال سومبور: مَنْ أنت؟

أنا: أنا المازني.

بوتا: أنت ماذا؟

أنا: أقول إني المازني.

ديارناك: بأي لغة تتكلم؟ أسرع.

أنا: إنه اسمي.

موروسكن: مسكين إنَّ صبرك على حمل هذا الاسم يرفع عنك أوزارك.

أنا: ليس هذا ذنبي.

موروسكن: قد غفرناه لك، فماذا أنت؟

أنا: أديب.

بوتا: أديب؟ إذن فأنت عاطل وطفيلي.

أنا: كلاً، لقد قتلني العمل وما كانت شكواي إلا قلة الراحة.

موروسكن: اسمعوا. اسمعوا!

سومبور: مهلاً. أتبحوا له فرصة. بأي شيء كنت تشتغل؟

أنا: بالصحافة.

الجميع: الصحافة؟!

وانتفضوا جميعاً واقفين يشيرون إلى شجرة الليمون حيث وقف الثلاثة المُقضى

عليهم.

وقال سومبور: سخت بالإجماع.

ثم التفت إلى زملائه وقال: وحسبنا اليوم هذا، وأعفوني من شهود التنفيذ، فلن

أقوى عليه بعد هذه الصدمة.

ووقفت تحت الشجرة مع رفاقي الثلاثة أنتظر «سخت»، وإذا بصاحبي يجذبني ويقول:

«تعالَ يا أبله.»

قلت: «إلى أين؟»

قال: «ماذا يعنيك وقد نجوتَ من سخت؟»

قلت: «نجوت؟ كيف كان ذلك؟»

قال: «لقد عزَّ عليَّ أن تكون بين الفرائس فذهبت إلى حيث قيديوا «سخت»، فلما صار القضاة عندها سبقت الحارس فأطلقتها عليهم فالتهمتهم بدلاً منكم، ولكني والله آسف على نجاة جارك! على أنني — على العموم — أراني أعدلَّ من هؤلاء القضاة يرحمهم الله.» فأرسلتها صيحةً فرحٍ عالمية فتحت عيني على النيل وحقائق الدنيا على شاطئيه.